لواء طيار

محمد زكي عكاشة



القفص الطائر

القفص الطائر

مواقف وتجارب من قتال سلاح الجو المصرى

لواء طيار

محمد زكى عكاشة

القفص الطائر

مواقف وتجارب من قتال سلاح الجو المصرى

رئيس مجلس الإدارة :

ا . د سمير سرحان

رئيس التحرير :

جمال الغيطانى

مدير التحرير

سعيد عبد الفتاح

الغلاف

والتصميم الجرافيكى

للفنان : محمود الهندى

هزيمة البطولة

كان أحد أيام الشتاء الدافئة ، خلت فيه السماء من السحب ، وسطعت الشمس فأكسبته دفئا لذيذا . . شجعه على أن يصحب أسرته الصغيرة المكونة من زوجته سناء وابنه هشام الذى يناهز الثالثة من عمره إلى حديقة الحيوان ، حيث نزهة ابنه المحببة . . جلس فى ركنه المفضل فى جزيرة الشاى يرشف قدحا من الشاى هو وزوجته ، وابنه وقف بجوار السور الحديدى يقذف بقطع الخبز إلى الماء ، ضاحكا فى كل مرة يرى فيها صراع الأوز من أجل قطعة الخبز . .

وغابت المناظر المحيطة عن عينيه حتى لم يعد يرى إلا تلك السعادة المجسدة فى ضحكات بريئة تخرج من قلب ابنه فى عفوية وطفولة عذبة . . وقطع عليه إحساسه صوت سناء وهى تبتسم بعد أن ظلت ترقبه فترة .

ــ أحمد . . مالك بتبص لهشام كده ليه ؟ زى ما يكون مفيش حد عنده ولد غيرك انت .

ــ إحساس غريب يا سناء ، ما أقدرش أوصفه ، لكن أقدر أقول الدنيا وما فيها ما تسواش ضحكة طفل رانت على وجهه مسحة من الحزن الخفيف وتابع قائلا :

ــ تعرفى يا سناء ، أنا كل مره أعمل فيها غاره على اليهود بأحس إنى مش راجع ، وأقول فى نفسى يا ترى يا هشام حاتعيش إزاى من غيرى

ــ يا حبيبى الأعمار دى بيد الله . وربنا يخليك لغاية ما تشوفه راجل ، وتشوف أولاده كمان .

ـ ما أنا عارف إن الأعمار بيد الله لكن انت شايفه بنفسك كل يوم والتانى واحد مننا بيموت . . هو أنا مش زى نبيل وحسين وصلاح وغيرهم كتير ، والا أنا أحسن منهم ، وكل واحد فيهم برضه ساب زوجه وساب أطفال .

وقاطعته زوجته حتى لا ينساق وراء هذا الإحساس الحزين ، وكانت قد تعودت على مثل تلك الأحاديث التى يتناول فيها الموت بسهوله غريبة ، من طول ما كان يرددها ومن كثرة ما غرفت طيارين زملاء له استشهدوا فى معارك بل وفى التدريبات أيضا .

ـ احكى لى يا أحمد عملتوا إيه فى الغاره الأخيرة . . الجرايد كلها كانت بتتكلم عليها .

ـ أبدا زى كل مره رحنا وضربنا ورجعنا .

ـ بقى الجرايد كل يوم بتحكى عن حرب الاستنزاف ، والطيارين عملوا ، والطيارين ضربوا ، وأنا بابقى قاعده مستنياك علشان تحكى لى وبعدين تيجى تقول رحنا وضربنا ورجعنا . . نفسى أعرف صربتم ازاى ؟ اليهود عملوا إيه لما شافوكم ؟ نفسى أتفرج عليك مره وانت بتضرب عند اليهود .

ورد عليها أحمد فى سخرية :
ـ خلاص ابقى روحى استنى جنب الحته اللى حانضربها علشان تشوفينى .
وردت عليه بعفوية وسذاجة دون أن تفكر .
ـ لا أنا عايزه أبقى معاك فى الطياره .
وتجاهل كلماتها قائلا كمن يحدث نفسه :
ـ تعرفى أنا نفسى فى إيه دلوقت ؟ نفسى اخلف أخ لهشام . . برضه يبقى أحسن .

وقاطعته مرة أخرى وهى تعلم ما يرمى إليه بهذه الكلمات :
ـ حسن وليلى اتكلموا امبارح فى التليفون وقالوا يسيبوك لى أول يوم فى الأجازة والنهارده حايسهروا معانا فى البيت .

ــ كل ما أفكر إنك كـان ممكن تتجوزى واحـد زى حسن من الشغل للبيت والساعه اتنين بالثانية يروح بيته ، ولا حرب ولا سفر ، ولا وجع قلب كل يوم . . أقول صحيح الجواز ده قسمه ونصيب .

ونظرت إليه نظرة كلها حب وحنان :

ــ يا ميدو إنت فاكر ان فيه حد يملا عينى زيك ، والنبى ولا عشره زى حسن ييجوا جنبك حاجه . . ده أنا بامشى معاك فى الشارع وحاسه إنى أحسن من كل الستات اللى حواليه . . كفاية إنى ما شيه مع بطل .

كانت كلماتها حارة جعلته يشعر بحنانها . . لكن سخريته غلبته :

ــ حلوه بطل دى . . فكرتينى بصابر الحلاق واحنا طلبه فى الكلية كان أى واحد داخل يحلق يفضل يقول له يا بطل لغاية ما يخلص وكل ده علشان الشلن البقشيش .

وفى المساء جاء صديقه حسن وزوجته وكان فى شوق إليهما حيث لم ينل أجازة من شهر تقريبا ، وكان حديث السهرة هو تلك الحرب الدائرة من عدة أشهر والتى لم تتضح نتائجها بعد ، كان حسن يهاجم تلك الحرب ويرى أنها حرب استنزاف لنا وليس لا سرائيل . . وأحمد يدافع ويشعر أن حسنا يهاجمه فى كيانه وداته ، وكيف لا وهو الذى يساهم فيها ليل نهار ويشعر أن حياته يمكن أن تنتهى فى لحظة من لحظاتها .

وانتهت السهره مبكرا على أمل أن يلتقوا مساء الغد وهو اليوم الأخير فى أجازة أحمد لتمضية السهرة بالخارج .

ــ حسن . . مش حانقدر نخرج النهاردة زى ما اتفقنا .

ــ ليه ؟ . . خير يا أحمد .

ــ خير الحمد لله . . أصل هشام تعبان شويـه . . سخن شويـه مش عارف ليه . . والنبى يا حسن أنا مسافر بكره المطار لإن ضرورى أكون هناك فلو ممكن تبقى تتصل بسناء علشان لو احتاجت حاجه .

ــ ما تقلقش يا أحمد وسافر انت بالسلامة .

وبات أحمد ليلته وهو يشعر بقلق خفى لكن تغلب عليه بأعصابه القويه آملا أن تكون وعكة عادية تمر بكل طفل . . وعاد من أجازته ودخل إلى مبنى السرب وظل

خفيف من الاكتئاب يكسو وجهه . . وبادره قائد السرب ضاحكا :

ــ مالك راجع مبوز ليه ؟ لا زم الحكومه نكدت عليك فى الأجازة . علشان كده أنا بأقول الطيارين مش لازم ينزلوا أجازات .

ــ لا أبدا يافندم . . أصل ابنى تعبان شويه وسايبه عنده حراره .

ــ يا راجل كل العيال بتسخن ولا يهمك بكره يخف ويبقى تمام .

ومر اليوم وهو فى دوامة العمل التى لم تترك له فرصة لكى يفكر فى ملاكه الصغير إلا عندما دخل إلى سريره فى الثانية عشر مساء وقد حل عليه تعب اليوم كله . . وقام فى صباح اليوم التالى وكل فكره أن يتصل بسناء كى يطمئن على ابنه . . لكن برنامج الطيران لم يترك له فرصة لكى يحقق أمنيته حتى كانت الثالثة ظهرا وتمكن من الاتصال بها ، وجاءه صوت زوجته مغلفا بالخوف واللهفة ، وإن حاولت أن تبدى تماسكها :

ــ الحمد لله الدكتور شافه امبارح وكتب العلاج . . بس لسه سخن شويه .

وضغط على أعصابه ونفسه كى يخرج صوته باردا ومطمئنا :

ــ ما تخافيش ، انشاء الله خير وأنا حا أحاول أنزل بكره علشان أشوفه . .

وذهب يتناول غداءه ونفسه تملؤها الهواجس لكنه يتغلب عليها بقوة أعصابه التى أصبحت أصلب من الفولاذ من طول ما عانت وتمرست فى المواقف الصعبة . .

وفجأة وهو يكاد ينتهى من طعامه دق جرس التليفون يطلب قائد السرب وشعر أحمد من ملامحه أن فى الأمر شيئا هاما . . أكده أمر قائد السرب

ــ الطيارين كلها على السرب ، حالة طوارىء ١٠٠ ٪ .

كان أمر القائد بعد المكالمة التليفونية حادا وقاطعا ، وفى استراحة الطوارىء التى يقضون فيها ثلاثة أرباع اليوم منذ ثلاث سنوات ، دخل عليهم القائد شارحا لهم الموقف :

ــ اليهود ضربوا مصنع فى أبو زعبل . . ده معناه إن الموقف بيتصاعد . . حالات الاستعداد فى أماكنها . . الاجازات موقوفه . . ونظر إلى أحمد وكان يليه فى الأقدمية :

ــ استدعى الطيارين اللى فى الأجازة يا أحمد .

وكانت الكلمات رغم أهميتها وحسمها معادة ومكررة ، فقد قابلهم العديد من مثل هذه المواقف . . فتفرقوا إلى طائراتهم مرابضين بداخلها فى انتظار أوامر بالإقلاع .

وجلس أحمد داخل طائرته يسترجع كلمات قائد السرب . . « ضرب مصنع . . يبقى لابد هناك خسائر كبيره عندنا ، يا ترى كم عدد قتلانا . . لابد إن دى رد على الغاره الاخيره بتاعتنا ، اليهود ما يضربوش مصنع إلا إذا كانوا موجوعين قوى . . استنزاف لنا والا لاسرائيل ؟ » .

قطع تفكيره صوت الجرس المدوى . . إنه أمر بالإقلاع الفورى لاعتراض طائرات اليهود التى اخترقت الجبهة . وبعد ثلاث دقائق كان فى الجو يقود تشكيله نحو الهدف المعادى . . محطة التوجيه تبلغه أن الهدف على بعد ستين كيلو متراً . . ينفذ الأوامر بدقة حتى لا يترك مجالا لأى خطأ يمكن طائرات العدو منه . . يشعر أنه سيحقق نصرا فى هذه الطلعة . . المسافة بينه وبين الطائرات المعادية ثلاثون كيلو متراً . . يثق فى أفراد تشكيله ثقة كبيرة . . المسافة سبعة كيلوات . . أوامره قاطعة ومحدده لكن بهدوء وثقة غريبة . . هذه ثالث مرة يشتبك فيها مع اليهود . . الشمس تميل على الأفق فى طريقها للغروب . . العدو قادم من الشرق والشمس أمامه . . اكتشافنا سيكون صعب عليه . .

ظهرت طائرات العدو على مرمى البصر . . أربع طائرات متخذة وضع الهجوم . . اليهودى حذر ويخفى جزءاً من قوته دائما . . سأهاجم بطائرتين فقط وسأقوم بالحماية أنا والطائرة الأخرى . . أفراد التشكيل ينفذون الاوامر بدقة ومهاره . . حانت فرصة ذهبية لكى أدفع بالطائرة الثالثة إلى الاشتباك . . سأقوم بحماية نفسى وحماية التشكيل . . اندفعت الطائرة الثالثة كما رسمت لها تماما وأسقطت طائرة للعدو . . شاهدها وهى تحترق . . سلمت يداك يا عصام . . أصغر أفراد التشكيل ، لكن نفذت ما فى رأسى تماما . . طلال يصرخ فرحا فى اللاسلكى إنه أسقط الطائرة الثانية . . قلبى يقفز فرحا بين ضلوعى . . طائرات العدو تحاول إنهاء المعزكه بعد تلك الخسارة . . لنترك نحن أيضا العدو فالوقود يكفى

للعودة فقط . . وحدث ما توقعته فى بداية المعركة . . طائرتان معاديتان تعززان قوة اليهود المنسحبة ، تحاول اصطياد أى طائرة أثناء العودة ، خاصة والوقود فيها لا يكفى لا شتباك آخر . .

جاء دوره لكى يحمى طائراته . . جذب طائرته لكى يهاجم الطائرتين و يبعدهما عن تشكيله العائد بسلام . . الطائرات المعادية تحاول الدخول خلفه كى تصطاده . . عمل مناورة عنيفة ليجعلهم فى مواجهته وليس فى مؤخرته . . نجح فى إبعاد الخطر عنه قليلا . . مازال العدو يتفوق عليه . . رأسه يتحرك بعنف كعصفور فزع من طلق نارى . . ضربات قلبه يطغى صوتها على صوت هدير محرك الطائرة . . يعكس اتجاه المناورة بعنف أشد . . يلهث وهو الجالس فوق مقعد لا يتحرك . . طائرات العدو انفصلت عن بعضها كى تتمكن منه . . موقفه يسوء وموقف العدو يتحسن . . سيتمكن منه العدو . . يجذب طائرته بكل قوته نحو إحدى الطائرتين . . كاد يصطدم بها ، فقد رأى الطيار اليهودى داخل طائرته بملابسه الزرقاء . . لا يهم . . يكفى أنه أخرجه من دائرة الاشتباك . . الطائرة الأخرى تكاد تقترب من مؤخرته . . لقد بذل كل ما فى وسعه . . أهى النهاية ؟ . . ليجذب مرة أخرى فى الاتجاه المعاكس . . هشام مريض . . لو كان له أخ . . طائرة العدو تتربص به ، تنتظر أن تخذله قواه فتنال منه . . سناء أرملة كبقية زوجات زملائه . . الشمس . . الشمس . . لقد وجدها عن يمينه . . ليحتمى بها . . جذب الطائرة بكل قطرة دم ، بكل خفقة قلب . . دخل فى اتجاه الشمس . . قطعا سيهرب منهم . . خرج من اتجاه الشمس بعد لحظات حسبها دهراً بأكمله . . غابت طائرات العدو عن عينيه واختفت . . لم يصدق عينيه . . دار حول نفسه بطائرته ليتأكد أن العدو تركه تماما . . وعاد إلى المطار وقلبه يرقص فرحا . . نشوة عارمة يشعر بها . . أسقط طائرتين من ست وتشكيله أربع طائرات فقط . . الأهم أن تشكيله عاد كله سالما . . واستقبله زملاؤه بالأحضان والقبلات . . كل من يقابله يعانقه . . « حمد الله على السلامه » . . رنت فى اذنه مئات المرات . . جلس مع زملائه يشرح لهم ما حدث ويعيد ما قاله عشرات المرات وكأنه يجتر سعادته وزملاؤه يستزيدونه دون ملل ، وكأنهم سكارى من نشوة النصر . .

سناء تقول إنه بطل . . رنت فى أذنه الكلمات وكأنما أفاق من سكرته ، وتذكر هشاما . . فقام إلى التليفون ملهوفا وهو يشير إلى زملائه أن يلتزموا الصمت حتى يستطيع سماع صوت زوجته . . وفى لحظة غرق المكان كله فى صمت مطبق . . ولم يكن هناك من صوت إلا كلمات أشبه بالنواح خرجت من فم أحمد :

ـ ايه ؟ . . ازاى ؟ . . مش ممكن . . مش معقول . . .

وسقطت منه سماعة التليفون وقد انخرط فى بكاء حار ، وهو يردد لا إله إلا الله ، وتلقفه قائد السرب فى أحضانه . . وعم الصمت المكان كله . . .

الصاروخ المهزوم

كانت الثانية ظهرا وآخر طائرات السرب قد هبطت على الأرض بعد تنفيذ مهام التدريب التى بدأت فى السابعة . وكان إرهاق التدريب وحرارة يوليو اللافحة قد نالا من الطيارين ، فارتموا جميعا صامتين فوق المقاعد المتناثره فى الخيمة التى كانوا يتخذونها استراحة لهم ، كانوا جميعا أشبه بمن انتهوا لتوهم من سباق للمارثون . . ودخلت عليهم الخيمة فهبوا جميعا واقفين كتقليد عسكرى احتراما لقائد السرب . وأمرتهم بالجلوس فانتظمت المقاعد المتناثرة فى شكل صفوف وان كانت متعرجة لسماع ملاحظاتى على ما دار فى تدريب اليوم .

ـــ حمد الله على السلامه جميعا ، نسبة تنفيذ البرنامج النهاردة ٩٥ ٪ ، مجهود ممتاز يا قنديل انت والمهندسين وكل الميكانيكية . بالنسبة للطيارين با اكرر للمره الخمسين ، تكتيكات القتال لازم تكون عنيفه لاقصى درجه ، كل تشكيل لازم يتدرب على إنه فى اشتباك حقيقى . . ولما أقول الطيران على ارتفاع عشرين متر يبقى لا زم كلنا نلتزم ، عصام انت كنت أعلى من عشرين متر ليه ؟ قادة التشكيلات مسئوله عن تنفيذ الملاحظات ، لأن كل . . .

وقطع رنين التليفون استكمال الملاحظات وكانت قيادة القوات الجوية تطلبنى شخصيا .

ـــ آلو ، أيوه يا فندم النقيب طيار محمد مع سيادتك . . جاهز يافندم . . ثانيه واحده يافندم علشان أكتب .

والتقطت النوتة الخاصة بى والقلم لكتابة الأوامر التى يبدو أنها هامة من لهجة المتحدث

ــ ايوه يافندم . . ٨ طيارات . . مهاجمة منطقة شئون اداريه وموقع صواريخ هوك فى منطقة رمانه على الطريق الشمالى . . تسليح كل طياره اتنين قنبله زائد ٨ صواريخ . . الهدف ٣٥ كيلو شرق القناه . . توقيت الهجوم مبدئيا الساعه ١٨٠٠ حاضر يافندم . . لا الطيارات حاتجهز كمان ساعه بالكتير . . أوامرك يافندم .

والتفت إلى ضباط السرب وقد ران عليهم الصمت غير مصدقين أن الأوامر قد صدرت بمهاجمة المواقع الاسرائيلية . . وعلى الفور استجمعت تفكيرى وهدوئى ، فقد كنت أنا أيضا غير مصدق :

ــ زى ما سمعتوا حانهاجم اليهود ، قنديل اتفضل انت والمهندسين تجهزوا ٨ طيارات بالتسليح كامل وطبعا ٢ احتياطى عايز تمام التجهيز بعد ساعه ، ياللا ورونا الهمه . . الطيارين تجيب الخرائط ، وكل واحد يجيب الطبنجه بتاعته معاه . . أحمد ، الغدا تروح تجيبه العربيه من الميس .

وفى لمح البصر انفض الجميع من حولى ، وبقيت وحدى فى الخيمة أسترجع الأوامر التى صدرت لى ، أفكر فى المهمة وكيفية تنفيذها . . موقع الهوك سيكون من نصيبى ، فهى المهمة الأصعب وأنا قائد السرب . حمدى يقود التشكيل المكلف بتدمير منطقة الشئون الإدارية . . الصاروخ الهوك يدمر الطائرات على ارتفاع ٣٠ متراً . . جرثومة الخوف تتسلل داخلى . . أول مرة أقود السرب فى عمليات حقيقية . . هل سأنجح فى تدمير الهوك أم سيدمرنى هو؟ . سأستخدم الارتفاع للهروب منه . . سأطير على ارتفاع ١٥ متراً ، وسأطير إليه مباشرة . . لو وصلت إلى الموقع أصبحت فى أمان منه ، فهو يعجز عن تدمير الطائرات التى فوق الموقع . . إنها المنطقة الميتة للصاروخ . . .

وانقطع حبل تفكيرى بعودة الطيارين ، والغريب أن وجوههم قد زال منها كل أثر للتعب أو الإرهاق . . وبدأت فى إعطاء أوامرى على خريطة كانت مفرودة على منضدة :

ـ أنا ومعايا طلال وحسن ومجدى حاناخد موقع الهوك ، وحانطير مباشرة من فوق المنصورة على ارتفاع ١٥ متر ، حمدى ومعاك عصام وجابر ورفعت بعدى بدقيقة ، التشكيل بتاعك يا حمدى يدخل على مدينة القنطرة وبعدين تاخد اتجاه منطقة الشئون الادارية . كده يبقى حمدى حايوصل المنطقة بعدى بدقيقتين ، يعنى أنا والتشكيل بتاعى حانكون دمرنا موقع الهوك انشاء الله . . حمدى حاتهاجم براحتك ، يبقى عايز نتايج عاليه ، يعنى تدمير شامل لمنطقة الشئون الاداريه . الهجمه الاولى قنابل والتانيه الـ ٨ صواريخ .

ـ ممكن يا افندم نعمل هجمه تالته بالمدافع .

وبصوت تعمدت أن يكون حاسما :

ـ هجمتين اتنين بس ، المدافع علشان لو حصل اشتباك مع الميراج اللى احتمال كبير حايطاردنا واحنا راجعين .

ـ ولو الميراج اعترضنا قبل ما نوصل الاهداف يا أفندم ؟

ـ على ارتفاع ١٥ متراً اللى احنا حانطير عليه مفيش رادار اسرائيلى حايكشفنا ، يعنى أول بلاغ عننا لما حانكون بنعبر القناه . . يبقى الميراج احتمال يعترضنا بعد ما نكون ضربنا وراجعين ، بس برضه كل واحد عينيه فى وسط رأسه من أول ما نعبر القناه . . ولو اعترضتنا الميراج بتاعتهم نرمى الحموله على طول ونشتبك معاهم .

وحاولت أن استكمل تعليماتى بصوت هادىء بعد أن لاحظت أن التوتر يبدو على وجوه الجميع :

ـ من هنا لغاية القناه اللاسلكى على قناة ٢ بس ما حدش ينطق بكلمه لغاية القناه ، علشان التصنت اللاسلكى بتاعهم ممكن يلقطنا . . آخر حاجه لو أنا حصل لى أى حاجه حسن حايقود التشكيل . .

وانكب الجميع على الخرائط كل يحاول أن تكون خريطته هى الأدق من ناحية الحسابات الملاحية . . وأصبح أفراد السرب جميعا وكأنهم فى سباق مع الزمن ، كل يريد أن ينهى ما كلف به فى أسرع وقت ممكن . . وقبل الثالثة بخمس دقائق كانت الطائرات قد تم تجهيزها ، وهو زمن قياسى للتجهيز ، لكن قنديل مهندس السرب

كان ذا كفاءة عالية تمكنه من هذا الأداء المتميز . وكان الطيارون قد حفظوا مهامهم عن ظهر قلب ، وتم إبلاغ غرفة العمليات بتمام الاستعداد لتنفيذ المهمة ، وطعام الضباط قد وصل فى العربة . . والترقب والقلق قد بديا واضحين على الوجوه . . وهدأت الأصوات وساد المطار تيار من الصمت الغريب . . وكان لابد من شىء يكسر حدة التوتر المرسوم على كل الوجوه . .

ــ ياللا يا جماعه ناكل لقمة ، وانت يا . . قنديل خللى الميكانيكيه يريحوا جنب الطيارات لغاية ما تيجى أوامر الطلعه .

والتف الجميع حول الطعام يأكلون دون شهية ، حتى انتهوا منه فى دقائق وكأنه مجرد تنفيذ للأوامر . . وشعرت بأنه لابد وأن يدور حديث ما حتى نخرج جميعا بما فيهم أنا من هذا التوتر :

ــ ياللا يا مجدى رشة شاى على حسابك للسرب .

ــ يا نهار اسود يافندم اسقى كل دول ، ده يبقى جزا لى يافندم .

واندفع واحد من الطيارين :

ــ أوامر القومندان ما فيهاش هزار . . . واد يا فارس . . هات عشرين شاى على حساب الظابط مجدى

ــ هو انت بس شاطر تشرب لما يكون على حساب حد تانى !

ــ يا أخى بطل شغل اليهود ده .

ــ والله المفروض إنك . . . .

وهكذا انساب الحديث وتداخل فيه الجميع ، وتناثرت الكلمات والضحكات ، وإن كانت مشوبة بشىء من العصبية . . وتسللت أنا وحيدا من الخيمة ناظرا إلى السماء ، إلى لا شىء .

ــ الصاروخ الهوك بيدمر الطياره على ارتفاع ٣٠ متر . . بقى لنا سنه بنضرب بالمدفعيه ، ايه اللى حصل علشان نهاجمهم بالطيران النهارده . . يا ترى حارجع من الطلعه دى ؟ . . العن حاجه الوقت الطويل اللى بننتظر فيه . . المفروض أوامر الطلعه تيجى وبعدها ننفذ على طول . . العمر واحد ، والمكتوب مكتوب . . أول

مره واحد فى مصر يهاجم بطارية الهوك وبايه ؟ بطياره ميج ١٧ . طارق ابنى عنده سنتين ، وكان نفسى أجيب له أخ . . يا ترى يا منال حاتجيبى ولد والا بنت . لسه فاضل شهرين على الولادة . . بس أنا حاسس إنى حا أوصل للهوك وحاأضربه . . أما لو وصلنا ورجعنا إحنا التمانيه ٢٠ يوليو ٦٩ حايتسجل فى التاريـخ . . طول الوقت والانتظار ده شىء فظيع . . من أول ما مسكت السرب والظباط بتقول إنى شديد عليهم على طول . . كنت باشد عليهم فى التدريب علشان يوم زى ده . . لما نشوف النتيجه حاتكون ايه النهارده . . ؟

وانتبهت على نداء حمدى على لكى أرد على التليفون الذى يطلبنى شخصيا .

ــ ايوه يافندم كله تمام وجاهزين . . حاضر يـافندم . . أوامـر سيادتـك . . لا . . إنشاء الله خير .

تحدد موعد الهجوم بعد نصف ساعة ، وكان هذا الأمر كفيلا بأن ينتشلنا جميعا من التوتر والقلق الذين كانا يسيطران علينا طوال فترة الانتظار ، فقد اتجهت بكل أحاسيسى ومشاعرى إلى الطيران وكيفية تنفيذ المهمة . . وعلى الفور اجتمعت فى الخيمة بالطيارين المشتركين فى المهمة فقط ، كى اطمئن إلى تفهم كل منهم لدوره فى الطلعة ، مكررا عليهم التعليمات السابقة ، حتى لا أترك شيئا للظروف .

ــ انشاء الله حانروح إحنا التمانيه وحانرجع برضه إحنا التمانيه . .

ــ أحتمال واحد ميراج من عندهم يتوه ويرجع معانا ونبقى رجعنا تسعه .

وكان لذلك التعليق الذى قاله رفعت مفعـول السحر بـين الطيـارين ، فقد انطلقت تعليقاتهم وضحكاتهم ، وتركت لهم الفرصة حتى يزول منهم أى توتر أو رهبة . . ثم وقفت استعدادا للانطلاق :

ــ نقرا الفاتحه كلنا إن ربنا يوفقنا فى الطلعه ونعمل نتائج كويسه .

وانطلقت إلى طائرتى وأنا أتمتم بآيات قرآنية ، تعودت على قراءتها منذ بدأت تعلم الطيران . . وبينما الميكانيكى يقوم بربط أحزمة المقعـد حول كتفىّ ، لمحت قنديل مهندس السرب يقف بجوار جناح الطائرة ووجهه مضطرب أشد الاضطراب وفى نفس اللحظة كان أحد الميكانيكية يقبل الصواريخ المحملة بجناح الطائرة .

وانطلقت بالطائرة فى الثانية المحددة ، وفوق المنصورة وجهت نفسى وطائرتى إلى اتجاه موقع الهوك . . وعلى ارتفاع ١٥ متراً وبنظرة سريعة تأكدت أن كل أفراد التشكيل فى مواقعهم المحددة . . السرعة ٦٠٠ كيلو متر . . الأرض حولى مزروعة بالقطن والذرة والقرى متناثرة على مرمى البصر . . الصاروخ الهوك يدمر الطائرة على ارتفاع ٣٠ متراً . . « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » . . الاتجاه انحرف ثلاث درجات لليسار . . سأعبر القناة فى الاتجاه الصحيح . . التشكيل فى منتهى الدقة . . التدريب العنيف ظهرت نتائجه . . أحب كل تلك الحقول والترع والقرى . . أشم رائحة الطين رغم الكابينة المحكم غلقها على . . دقيقتان ونصل إلى القناة ، هل ستعترضنا الميراج قبل وصولنا للهدف . . السرعة ، الاتجاه ، الارتفاع . . القناة على مرمى البصر . . سيناء مرة أخرى بعد عامين . . يارب ، خمسة وثلاثون كيلو متراً ونصل إلى بطارية الهوك . . سيناء المحتلة شاهد عجزنا وتقصيرنا . . اين الميراج الاسرائيلى . . الارتفاع ١٥ متراً . . قلبى ينتفض فى صدرى ، يداى تتشنجان على عصا القيادة . . دقيقة واحدة وأدخل المنطقة الميتة فوق الموقع . . إلهى . . صاروخ يمرق من أمام الطائرة ، أكاد أسمع صوت حشرجة اللهب المنبعث من ذيله ، من شدة قربه منى . . لم يصب أحد من التشكيل ، لقد نجحت خطتى فى الطيران على ارتفاع ١٥ متراً . . ارتفاعنا المنخفض يحمينا منه أوامر للتشكيل بالاستعداد للهجوم . . ها هو الموقع أخيرا والصاروخ الثانى ينطلق من فوق القاذف مخلفا سحابة من الرمال تحدد الموقع تماما . . أحمدك يارب . . لقد أصبحت فوق الموقع وانتهى الأمر . . فقد تمكنت منه .

ـــ الموقع على شمالنا بالظبط ، أنا وطلال حانهاجم مركز القياده ، حسن ومجدى حاتهاجموا الرادار .

وبدأ التشكيل فى التنفيذ بدقة وبراعة لم أكن أنا نفسى أتوقعها منهم . وارتفعت بالتشكيل إلى ٨٠٠ متر ، استعدادا لقذف القنابل . . وكان الموقع تحتى يبدو وكأنه صورة مجسمة . . ووضعت الطائرة فى وضع الانقضاض ، وغاب كل شىء عن ذهنى ولم أعد أشعر بشىء من حولى ، سوى أن عينىّ قد تحجرتا من خلال جهاز التنشين على مركز القيادة ، خشية أن ينحرف التنشين قيد أنملة . . واستمر هذا

الوضع لثلاث ثوانى كنت قد وصلت خلالها إلى ارتفاع ٤٠٠ متر ، وفى لمح البصر تأكدت من السرعة وكانت ٦٥٠ كيلو متراً ، وكانت تلك هى اللحظة المناسبة فضغطت باصبعى على زر إسقاط القنابل . ثم على الفور بدأت فى الخروج من الانقضاض . .

ــ الله ينور يافندم . . القنابل نزلت فى حجر الراجل اللى فى مركز القيادة .

أسعدنى تعليق حسن أيما سعادة ، فقد كان خلفى وكلماته تدل على أن قنابلى قد أصابت الهدف تماما ، وبهذا توقفت بطارية الهوك عن العمل . . وخرجت من الهجمة الأولى وارتفاعى حوالى ١٠ أمتار هربا من المدفعية المضادة التى ستحاول أن تصيب أيا من طائرات التشكيل . . وبدأت الالتفاف بطائرتى استعدادا للهجمة الثانية .

ــ كل التشكيل على ارتفاع ١٠ متر علشان الـ م/ك

وارتفعت بالطائرة مرة أخرى إلى ٧٠٠ متر ، ثم وضعت الطائرة فى وضع الانقضاض على أحد الرادارات . وتكرر ما حدث فى الهجمة الأولى من تحجر عينىّ على الهدف حتى ضغطت على زر اطلاق الصواريخ . . وفى ثوانٍ معدودة كانت الصواريخ الثمانية تخترق الرادار فتحيله إلى كتلة من لهب . .

وانتابنى شعور غريب بالراحة . . كنت أشعر كمن أنزل حملاً ثقيلاً من على كتفيه . . والتفت حولى كى ألاحظ باقى طائرات التشكيل ، فرأيت حسنا ومجدى يهاجمان ببراعة ، رغم أن هناك مدفعية مضادة للطائرات بدأت فى مطاردتنا كى نتوقف عن مهاجمة الموقع ، أو على الاقل نرتبك فتأتى هجماتنا غير مؤثرة .

ــ إيه يا حمدى أخبارك إيه ؟

ــ كله تمام يا فندم ، فى الهجمه التالته والموقع تقريبا انتهى وأعلى حاجه فيه دلوقت هى الرصيف . ولم أترك حمدى وتشكيله يتمادى فى حماسه ، فقد خالف أوامرى بتلك الهجمة الثالثه .

ــ حمدى ، اوقف الهجوم خلاص . . جمع التشكيل بتاعك وخد اتجاه العوده .

ــ حاضر يافندم .

ـ كل الطيارين تبص حواليها كويس ، احتمال الميراج يظهر دلوقت .

وتركت موقع الهوك وتجمع باقى أفراد التشكيل حولى فى مواقعهم المحددة . .
ويعد أقل من دقيقة ظهر على البعد حمدى وتشكيله بعد أن ترك الموقع هو الآخر .

ـ أنا على يمينك على طول يا حمدى . . مسافتى منك ٣ كيلو .

ـ شايفك يافندم ، وحا اضم عليك .

انتابنى شىء من الزهو بداخلى ، لكنى قضيت عليه فى لحظتها ، حين تذكرت بأنه يجب أن أعود بالثمانى طائرات وكنا مازلنا على بعد دقيقتين من القناه . . كانت عيناى تمسحان السماء بحثا عن الميراج الاسرائيلى ، حيث هى الخطر الذى يهددنا فى هذه المرحلة من الطلعة . . سينا . . هل سيقدر لى العودة إليك مرة أخرى . . سأبقى على ارتفاع ١٥ متراً حتى القناة . . العرق يتصبب منى بغزارة ليست من طبيعتى . . القناة على مرمى البصر . .

ـ القناه تحتنا يافندم .

انطلقت الكلمات من جابر فى جهاز اللاسلكى ، وكان يبغى أن يطمئن الجميع إلى أننا أصبحنا فوق أرضنا وفى حماية دفاعنا الجوى ، الذى سيتكفل بأية طائرة معادية مقتربة منا . . وشعرت بأن الغدة اللعابية عندى قد بدأت تعمل لتزيل جفاف جلقى الشديد الذى بدأت أشعر به الآن فقط . .

وما إن عبرت القناة وأصبحنا فوق الضفة الغربية ، حتى بادرت بالتسلق التدريجى حتى وصلت بالطائرة إلى ارتفاع ١٠٠ متر وتنفست الصعداء ، وخيل إلى أن هذه المائة متر ارتفاع كبير جدا ، رغم أننا نتدرب على هذا الارتفاع فى مرحلة الطيران المنخفض . . ثم تابعت التسلق بعد فترة إلى ارتفاع ٨٠٠ متر ، فامتلأت عيناى بخضرة المزارع والحقول الممتدة أمامى ، فانزاح عنى كل تعب كنت أشعر به ، بل سرى فى داخلى استرخاء غريب . .

وهبطنا ثمانى طائرات بسلام ، وغادرت طائرتى بعد أن أوقفت المحرك ، وفوجئت بالميكانيكية وهى تتجمع حولى ثم يحملونى لأعلى وهم يهتفون باسم مصر . . وشعرت بحرج شديد وطلبت منهم أن ينزلونى . . فاستجابوا على الفور ،

لكن أمطرونى بقبلات لا حصر لها . . والكل يردد كلمات واحدة كأنهم متفقون عليها

ــ ألف مبروك . . حمد الله على السلامه .

وفى دقائق معدودة كنا قد تجمعنا مرة أخرى فى الخيمة ، الكل يكاد يقفز فرحا وطربا . . الجميع يتكلمون ولا أحد يستمع . . الطيارون يحتضن بعضهم بعضا . . الكل يقبل بعضه . . ثم تتكرر الأحضان والقبلات . . المشتركون فى الطلعة يحكون للباقى تفاصيل ما تم فى الطلعة وما شاهدوه لدى اليهود . . يقطع تلك الحكايات تعليقات وضحكات الباقين . .

ــ شفت المدفع اللى كان على يمين النقيب حمدى ؟

ــ أنا قلت جابر حايرشق فى الأرض . . كان بينه وبين الأرض مش اكتر من متر .

ــ وإحنا رايحين قلت النقيب محمد حايخبط فى السلك اللى قبل القناه .

ــ كنا طايرين ولا لما نكون بنزحف بالطيارات .

ــ الواد طلال رقع الصواريخ بتاعته والعساكر بتاعتهم بتجرى ناحية الرادار .

ــ كانوا بيجروا لقضاهم .

ــ بس النقيب محمد قومندان بصحيح .

ــ أنا ما شفتش الصاروخ اللى بتقولوا عليه ده .

وفى خضم هذا كله ألابد وأن أنسحب من بين هؤلاء السكارى المنتشين بنصرهم الذى ذاقوا حلاوته . . فتوجهت إلى مكتبى فى مبنى السرب وأنا أكاد أطير زهوا . . وانتهيت من إبلاغ القيادة بنتائج الطلعة . . وكان وقت الغروب قد حان ، فخرجت من الغرفة ناظرا فى الأفق إلى لا شىء ، أسترجع ما حدث . . وبعد لحظات فوجئت بقنديل يقبل على ولم أكن قد شاهدته بعد الطلعة . . واحتضننى قائلا :

ــ حمد الله على السلامه يافندم . . صور الأفلام بتقول ان النتايج ممتازه .

ثم وضح الانفعال عليه ، وأدار وجهه ليخفى دمعة .

ــ أنا كنت خايف قوى يانقيب محمد . . مع إنى كنت هنا على الارض .

نبدأ وامر .. رقم

ــ قول اسمك مظبوط يا تحفه .

ــ ١٠٦٥ طالب مستجد أحمد على الشناوى يافندم .

ــ كل واحد يكتب رقمه على المهمـات بتاعتـه .. ٤٥ يوم فترة اختبار .. الفصيله ٣ السريه ٦ .. نوبة صحيان الساعه ٦ صباحا .. الدفعه ٤٢ .. الزياره من ١٠ ــ ١٢ .. ٢ طابور زياده .. اختراق ضاحيه ٨ كيلو متر .. الشعر محلوق نمره ٣ .. طالب نمره ٣ فى الصف الأول بلاش حركه .. خدمه على البوابـه من ٦ ــ ٨ ..

ــ بند أوامر رقم ٧٦ تصدق لطلبة الدفعه ٤٢ بأجازة ٥ أيام اعتبارا من ...

مـدرج ٨ .. المحاضـرة الثالثـة تكتيك .. مـواجهة الفصيلة ١٠٠ متر فى الهجوم .. الكتيبه تحتل مواقعها فى ٢ نسق .. السريه ٩٠ فرد .. معدل السير ٢ كيلو متر فى الساعه .. تمرين نمره ٦ خمسين مره .. دورية سير ٣ أيام ..

ــ بند أوامر رقم ٢٣٢ تقرر ترقية الطلبة الآتيةأسماؤ هم إلى ..

ألف مبروك يا أحمد النجاح .. ٤ شرايط على دراعك .. من أقدم ١٠ على الدفعه .. عبور ميدان الموانع فى ٧ دقيقة ٥ أيام حجـز قشلاق علشـان السريـه متأخره .. دروس حرب ٥٦ .. حفل تخرج الدفعه فى قاعة ٢٣ يوليو .. كل خريج ٢ مدعو فقط .. فى الترتيب العام ١٢ فى التكتيك الاول .. رغبه أولى الصاعقه .. أجازه ٧ أيام ..

ــ تسلموا نفسكم للوحدات ١٩٦٢/٧/٢٠ .

ــ حمد الله على النلامه ، وأهلا بكم فى الكتيبه ٢٥ صاعقه .

ــ بند أوامر رقم ٣١٥ تقرر انضمام كل من الآتى أسماؤهم بعد إلى ك ٢٥ صاعقه اعتبارا من . . .

نوبة صحيان الساعه ٥ . . ٨ لفات حو المعسكر . . دوريات قتال ٣ أيام . . القفز من ٢٠ متر فى الميه . . مجموعات اقتحام ١٢ فرد . . ٢ يوم دورية إعاشه بدون أكل أو ميه . . تجديف ٤٣ كيلو متر مع الهجوم ٣ مرات فى الطريق . . المرتب ٢٨,٥ جنيه . . استمارة ٧ ع للعساكر . . مصر الجديدة تركب خط ٤ . . نوبتجيه كل ٦ أيام . . ٢ يوم مبيت علشان التدريب الليلى . .

ــ تفتكر بعد عشر سنين حاتفضل تحبنى كده ؟

ــ لو بعد ميت سنه برضه يا ناهد حا احبك . . نفسى لما نتجوز نخلف ٣ صبيان .

ــ بند أوامر رقم ٤٣٢ تتحرك الكتيبه ٢٥ صاعقه إلى اليمن . . تمام الاستعداد للتحرك الساعه ٦٠٠ يوم ٢٠/٩/٦٤ . . ٤٠٠٠ كيلو متر من القاهرة . . جبل صرواح ٨٠٠ متر من سطح البحر . . الموقع يحتاج إلى أكثر من ٥٢ عسكرى . . لا من ٢ عساكر خدمه مستمره لحماية مخزن الذخيره . . تمام يافندم اللاسلكى على قناه ٧ . . اسمعك بقوة ٤ على ٥ . .

ــ المتسللين اليمنين بيهاجمونا بقالهم ٣ مرات .

ــ لازم نهاجم احنا المره دى يافندم .

الهجوم بعد منتصف الليل بـ ٤٥ دقيقه . . ٢ طلقه كاشفه للمدفعيه المعاونة . . كل عسكرى ٣ خزنة طلقات . . الفاصل ٢٠٠ متر بين كل فصيله والثانيه . . المدفعيه توقف الضرب بعد ٢٢ دقيقه . . القوه صغيره على الهجوم . . قدامنا ٢٠٠ متسلل يمنى على الاقل . . نجده من السريه ١٩ . . حاصرونا من ثلاث جهات . . الضرب علينا شديد . . الفجر بعد ٣ ساعات . . لو استحملنا لغاية الفجر حانخرج من الحصار . . يارب ميت ركعه لو طلع علينا النهار . . النجده وصلت قبل الميعاد بـ ٣٠ دقيقه . . هايل ، الف حمد وشكر لك يارب .

ـ أصل الشقه لازم تكون ٤ وصاله .
ـ الراجل عايز ٣٠٠ جنيه مقدم ، حايبقى فاضل معايا ٤٠٠ . . نعمل الفرح فى ٢/٤ .
ـ بند أوامر رقم ٥١٥ تصدق للنقيب أحمد على الشناوى بأجازة ٧ أيام اعتباراً من . . السرية الأولى على كل سرايا الصاعقة . . مجهود ممتاز يا أحمد ، بعد كام يوم لك عندى خبر كويس . .
ـ بند أوامر رقم ٥٢١ تعين النقيب أحمد على الشناوى قائداً للسرية ١٧ اعتباراً من . .

ـ استلام ٩٣ بندقية آلية ٣٠٠ عربة جيب ٨٠٠ عربه نقل جنود . . . ٩١٤٥ طلقه . . ٣٦٨٠٠ جنيه عهـدة السريـه . . ايصال استـلام رقـم ١٦٢ . . نماذج ١٠٨٠ خاصه بالتحركات . .
ـ أحمد . . السريه تكون جاهزه للتحرك بعد ٤٨ ساعه .
ـ بند أوامر رقم ٦٣٤ تتحرك السريه ١٧ إلى ممر متلا والتمركـز عند الكيلو ٣٧ . . تمام الاستعداد الساعه . . ٦ يوم ١٧ مايو ١٩٦٧ .
عبور القناه الساعه . . ٤ . . التحرك قول طريق ٨ عربات ، ٢ هاون فى كل عربه . . احتلال التبه ١٤٥ . . كل فصيله ٢ عساكر خدمه ٢٤ ساعه . . اسرائيل على بعد ٢٠٠ كيلو متر . . ١٨ يوم فى الطوارىء دى ومش باين أى حاجه . . زيارة القائد العام للوحدات يوم ٥ يونيو . .
ـ بند أوامر رقم ٦٨٤ وصول عدد ٧٢ جندى احتياط يوم ٣ يونيو ١٩٦٧
الاستعداد لزيارة القائـد العام الســاعه ٩٠٠ . . الهجـوم على ١٠ مـطارات مصرية . . اسقاط ٨٦ طائره اسرائيليه خلال ٤ ساعات . . الانسحاب غرب القناه الساعه ١٩٠٠ يوم ٦ يونيو . . قرار الامـم المتحدة رقم ٢٤٢
ـ أحمد . . موقف السريه ١٧ إيه ؟
ـ نسبه الاستكمال فى السريه ٥٦ ٪ عندى شهداء كتير يافندم .
ـ بند أوامر رقم ٧٦٣ استشهد الآتى أسماؤهم بعد . .

التحرك بالقطار ٥٤٢ . . التمركز ٩ كيلو متر شمال الاسماعيليه . . اسرائيل خدت ٢٠٠ كيلو وبقت على بعد ١٨٠ متر . . قصف جوى على السويس ٣ ساعات . . مستوى السريه فى التدريب ٦٥ ٪ . . اعادة اختبار للسريه بعد ٤٥ يوم . .

ــ بند أوامر رقم ٦٢١ تصدق باجازه ٢٤ ساعه للنقيب أحمد على الشناوى :

ــ ياوالدى احنا نقدر نهزم اليهود والله العظيم .

ــ يابنى انتم قدامكم ٢٠ سنه على ماتقدروا تحاربو تانى .

ــ معقول يا عمى حانقعد ٢٠ سنه فى الحال ده ؟

ــ يابنتى ياناهد الانجليز احتلونا ٨٠ سنه .

ــ بس إحنا يا بابا مش حانعمل زيكم ، مظاهرات ومفاوضات وبس ، إحنا كلها سنه والا اتنين ولازم تقوم حرب تانى مع اسرائيل . . يا بابا إحنا ما حاربناش فى ٦٧ .

ــ خلاص يا أحمد انقل نفسك فى حته قريبه بقى ما دام الحكايه حاتطول .

ــ من فضلك يا ناهد الموضوع ده بيضا يقنى ومش عايز هزار فيه .

نسبه استكمال المعدات ٨٥ ٪ . . ٣ طابور نهارى + ٣ ليلى . . معقول حانقعد ٢٠ سنه لما نحارب تانى . . ٩ مارس زيارة الفريق عبد المنعم رياض للجبهه . . اشتباك بالمدفعيه ٥ ساعات . . استشهاد الفريق رياض . . تعليمات عمليات ٦٩/٦ . . عبور ضابط و ٨ عساكر للضفه الشرقيه للقناه والعودة لرفع الروح المعنوية . . الفصيله ٣ تقوم بحماية مجموعات العبور . . استدعاء لمكتب قائد الكتيبه .

ــ السريه بتاعتك تجهز يا احمد لعملية عبور حقيقى واشتباك مع اليهود . . مطلوب احضار ٢ ــ ٣ أسرى من النقطه القريه اللى فى نمره ٦ . . قدامك ٣ ايام تجهز نفسك ، وتعرض على خطتك بكره الساعه ١١ .

ــ المدفعيه بتاعتنا حاتعمل لكم ستارة نيران شرق القناه على بعد ٤٠٠ متر من موقع الهجوم ، حانبدأ الضرب بعد البلاغ بانتهاء العمليه بــ ٣ دقائق .

ــ حا اطلع بند أوامر للتمويه يافندم .

ــ بند أوامر رقم ٦٩٤ يتم تحرك السريه ١٧ إلى انشاص اعتبارا . . .

ساعة (س) ٣ صباحا . . مجموعة الاقتحام الاولى معايا والتانيه مع حسن الغمرى المجموعات الساتره مع حسين . . مطلوب ٤ قارب + ١ احتياطى . . الموجود ٤ نضارة رؤ ية ليليه ، بس مش مهم . . من كل مجموعة اقتحام ٣ مخصصين علشان الاسير . . الليله ١٢ عربى والقمر حايساعدنا كتير .

ــ أول ما ترجعوا بالسلامه حاتلاقوا الشاى جاهز وعلى حسابى .

ــ تصور يافندم بتاع دمياط حايحزمنا على شاى !

ــ الساعه دلوقت (س -٢) . . توكلنا على الله يا رجاله . . الدوريه الاسرائيلى ٣ دبابات ، اوعى حد يظهر قبل الثلاث دبابات ماتعدى .

فاضل ٤٥ دقيقة على الهجوم . . والذى كان بيقول حانحارب بعد ٢٠ سنه . . القرار ٢٤٢ . . الليله حفلة أم كلثوم وطبعا اليهود فاهمين إن إحنا بنسمعها دلوقت . . أول مرة حانشوف اليهود بتوع ٦٧ . . قالوا عليهم الجيش الاسطوره . . طول عمرى من ٢٠ سنه وانا نفسى أكون ظابط صاعقه . . الوقت طويل قوى . . الناس كانت بتقول علينا نكت من سنتين . .

ــ بص بالنضارة ، شايف الواد اللى قاعد بيسمع الراديو ده . . حاتبتدى بيه يا اسماعين ، اذا جه معاك كان بها وإذا عصلج يبقى تخلص عليه ، ومن غير صوت .

ــ حاضر يافندم .

حد يصدق إن إحنا على أرض سينا تانى . . حسن الغمرى ظابط هايل بس أنا خايف عليه من اندفاعه . . صوت الدبابات ابتدا يظهر . . ندر على لو العمليه نجحت ١٠٠ ركعه يارب . . الدبابات بتمشى بفاصل ٥ دقائق . . الله يرحمك يا أمى طول عمرك كنت خايفه على من حكاية الصاعقة . . وحشتينى قوى . . دى آخر دبابه فى الدوريه . . يارب دى أول عمليه ضد اليهود ، يسر ولا تعسر يارب . .

ـ دقيقة يا حسن وتبتدى .
ـ حاضر يافندم .
ـ خلليك ورا اسماعين ١٠ خطوات ياعرابى ، تحميه لغاية مايوصل للدشمة .
ـ يافندم حافظين كل حاجه .
ـ ياللا يارجاله .
ـ سليمان وهاشم اوعوا حد يخرج من باب الدشمه .
ـ كتفه يااسماعين ، ينصر دينك يابو السباع .
ـ يانقيب حسن الدشمه صحيت .
ـ القنابل ياسلامه .
ـ دب صباعك فى عينه ياعرابى ، يبطل صريخ .
ـ بطل الرشاش بتاعهم اللى فى اليمين ده .
ـ مبروك يا فندم النقيب حسن جاب اتنين منهم .
ـ بسرعة يا حسن على القارب .
ـ اسماعين الراجل بتاعه مغمى عليّه .
ـ شيلوه بسرعه وعلى القارب ، معاهم يا برعى .
ـ فيه صوت دبابة جايه ، سامعه يا فندم ؟
العمليه كده تمام ، ياللا يا رجاله على القوارب .
ـ الو اسد . . الو اسد . . الو اسد . . ازرق ٢٠ العمليه تمام ، متجهين للقوارب .
ـ يافندم . . الدبابه شمالنا اهه ، ٥٠٠ متر تقريبا .
ـ سليمان وهاشم خليكوا معايا والباقى يكمل .
ـ لازم نعطل الدبابه يا هاشم انشا الله ٥ دقائق ، القنبلة حاتخليها تتأخر شويه .
ـ الحق ياسليمان النقيب أحمد انصاب .
ـ الحمد لله المدفعيه بتاعتنا ابتدت اهه ، الدبابه رجعت ورا التبه اللى فى الشمال .

ـــ شيل معايا يا هاشم ، بسرعه .
ـــ سلامتك يافندم .
ـــ الباقيين . . رجعوا .
ـــ القوارب كلها رجعت يافندم فاضل القارب بتاعنا ، وادى احنا خلاص اهه على حرف الميه .
ـــ بسيطة انشاء الله يانقيب حسن . .
ـــ بسرعه حد ينده للدكتور وعربية الاسعاف . . يا حبيبى يا أحمد ، من واحنا طلبه فى الكلية ما سيبناش بعض .
ـــ ايه يا اسماعين ، ده وقت عياط . . بسرعه حطوه فى بطانيه وعالمستشفى ، وانت اطلع معاه يا حسن .
ـــ حسن . . . الباقيين . . رجعوا . . .
ـــ كلهم رجعوا يا أحمد ، والعمليه نجحنا فيها ١٠٠ ٪ . . . انت بس استريح
القمر استخبى فى السحاب . . المسافه للمستشفى ٢٠ كيلو متر . . الاخ الاكبر لاربع اخوات بنات . . سرعة العربه ٧٠ . . فات ٢٣ شهر على حرب ٦٧ . . القتلى اليهود ٨ على الأقل و٣ أسرى . . السريه كان عندها اعادة تفتيش بعد ٨ أيام لان مستواها كان ٦٥ ٪ . . النبض ٤٥ فى الدقيقة . . زود السرعه خليها ٩٠ . . المدفعيه بتاعتنا اتأخرت ٣٠ ثانيه فى الضرب . . يارب . . كوباية الشاى السخن . . البرد جامد قوى . . النبض ٣٥ . .

ـــ انت يا حسن اللى تبلغ أهله لإن برضه انت كنت صاحبه وعارفهم .
ـــ ما تنساش تعمل شهادة برقم الرشاش اللى سابوه هناك .
شهادة وفاه رقم ٦/٨٣٢ . . محضر جرد عهده شخصيه رقم ٤٣ . . نموذج عمليات رقم ٥١ . . سركى معاش رقم ٥/١٢٤٤ إجمالى المبالغ المستحقه للورثه ٢١٤٠ جنيه . .
ـــ بند أوامر رقم ٧٩٢ استشهد النقيب أحمد على الشناوى بتاريخ ١٩٦٩/٤/٢ ، وتعين النقيب حسن محمد الغمرى قائداً للسريه ١٧ اعتبارا من . . .

الوجه الاخر

كانت الشلة مجتمعة فى نادى الجزيرة منذ الصباح ، وسامح لا يغادر حمام السباحة إلا ليلتقط بعضاً من الطعام أو المشروبات ، ثم يعاود الكرة هاربا من حر يوليو اللافح ، ومن بعض أفراد الشلة الذين أصبحوا على النقيض معه فى أمور شتى .

ــ عارف بقى لنا قد إيه فى الميه ؟ . . أكتر من ساعتين .

ــ يا ستى هو احنا ورانا حاجه . . احنا جايين علشان نتفسح . . والميه من ألذ مايمكن .

ــ لا . . ياللا نطلع بقى أحسن زهقت .

ولم تنتظر هناء موافقة سامح زوجها ، وإنما خرجت من حمام السباحة مباشرة إلى غرفة تغيير الملابس ، ولم يجد سامح بدأ من موافقتها فتبعها راضخا . وبعد دقائق كانا قد انضما للشلة فى الكافتريا .

ــ البرنامج بالليل ايه يا جماعه . . ؟

ــ تيجوا نطلع المقطم فيه فرقه هايله . . ايه رأيك يا سامح .

ــ لا يا جماعه ، اعفونى أنا من السهر الليله دى علشان مسافر بكره فى الفجر

وكان هذا الرد كفيلاً بأن تنقلب ملامح هناء وتظهر عليها علامات الضيق والتبرم .

ــ لا ، لا . . الليله فى الاوبرج ، ومفيش اعتذار من أى حد . . المقابله الساعه عشرة هناك .

وهتف أفراد الشلة جميعا .

ـ أوكى !

وانفرط عقد الشله على وعد بلقاء فى المساء . . وما أن وصل سامح وهناء إلى عربتهما ، حتى عاجلته بكلماتها المنفعلة باندفاع كأنه طلقات المدفع .

ـ ايه بقى ، مش عايز نسهر كمان الليله دى ليه ؟ . . يعنى مش كفايه قاعده لوحدى طول الشهر ، يبقى حتى الليلتين اللى بتيجى فيهم مش عايز نتفسح .

ـ يا حبيبتى ما احنا سهرنا امبارح مع إنى كنت جاى من السفر ، والنهارده أهه فى النادى ، ومع الشله برضه ، فيها إيه لو قعدنا النهارده فى البيت ، عربية الشغل حاتعدى على خمسه الصبح .

ـ يا سيدى اسهر الليله دى ولما ترجع الشغل ابقى نام زى ما انت عاوز .

ونظر إليها فى سخرية .

هو أنا باروح الكتيبه علشان انام . . طيب .

ثم ضغط على نفسه حتى لا يزيد حدة الخلاف ، خاصة وهو يشتهى جسدها ، فهو لم يشبع من معاشرتها بالأمس أو هذا الصباح . . وكيف يشبع وهو بعيد عنها طوال شهر كامل .

ـ خلاص يا ستى حانسهر الليله ، ولا تزعلى نفسك

واجتمعت الشلة فى الاوبرج وقضيا وقتا صاخبا حتى الثالثة صباحا ، وفى طريق العودة اقترح عليها سامح أن يتمشيا على النيل ، خاصة وانه لن ينام حتى ميعاد السفر الذى بقى عليه ساعتان .

ـ يا هناء يا حبيبتى لازم تقدرى ظروف شغلى .

ـ يا سامح انت اللى لازم تقدر . . واحد ييجى لمراته يوم واللا اتنين بالكتير كل شهر يبقى عايز تقعدهم فى البيت كمان . . وبعدين أنا مش عارفه الظروف دى حاتخلص امتى .

ـ لما الحرب تخلص .

واندفعت بحدتها المعهودة .

ـ وأنا مالى ومال الحرب . . انت عارف احنا قعدنا مع بعض قد ايه ؟ . . يا دوب شهرين وطلعت لنا ٦٧ . ومن يومها وأنا مش عارفه ان كنت متجوزه واللا

لأ .

وكان هذا هو محور الحديث المكرر والمعاد الذى يدور بينهما فى كل أجازة يأتى فيها سامح إلى القاهرة . . وشعر سامح بمدى انفعالها واندفاعها فحاول إسكاتها بـرقة فوضع ذراعه حول كتفها ومال برأسه عليها .

ـ يا هناء يا حبى فيه حاجات مش فى ايدينا نغيرها . . ما أقدرش أقول النهارده أنا مش حاحارب علشان مراتى قاعده لوحدها أو زهقانه من الوضع ده . . وبعدين كل الظباط على الحال ده .

ـ يا سامح أنا يوم ما اتجوزتك كنت فى مصر وقلت انك مهندس وشغلك هنا على طول . .

وقاطعها حتى لا تسترسل فى افساد اللحظة الشاعرية التى يحاول الامساك بها .

ـ من فضلك ، ظابط مهندس . . وبعدين هو احنا كنا عارفين إن حايحصل ٦٧ دى ، وان البلد كلها حاتتشقلب .

وبقدر اشتياق سامح إلى زوجته وجسدها الشهى طوال الشهر الذى يقضيه فى الجبهة ، بقدر ما كان يعود من اجازته والخلاف بينهما على أشده .

ـ ماتكلم أونكل عبد الرحمن وهو ينقلك مصر فى دقيقة ، هو مش لواء ونائب الوزير على طول .

يا هناء الموضوع ده اتكلمنا فيه قبل كده ، وقلت لأ يعنى لأ .

ـ يبقى انت مش عايز تقعد معايا بقى . . قول كده .

ويعود سامح إلى الكتيبة من اجازته وهو يحمل هموم الدنيا بسبب كلمات زوجته التى لا تشعر بشىء حولها ، سوى انها تريده بجانبها .

ـ يا ستى الموضوع موضوع مبدأ ، وانا مقتنع بانى فى الجبهه ، ومش عايز أجى مصر ، يا هناء أنا حاسس ان هناك فى القناه باعمل حاجه .

ـ طيب ماتعمل الحاجة دى وانت فى مصر ، واللا فى مصر مابيعملوش حاجه .

ـ ياستى اللى فى مصر بيعملوا ، بس لما كلنا نيجى مصر مين حايقعد فى الجبهه ؟

ـ يعنى انتوا قاعدين فى الجبهه علشان تحاربوا صحيح ، أهو كلام جرايد . . طول النهار يقولوا استنزاف وغارات وادى احنا زى ما احنا بقى لنا سنتين وزياده .
وهنا انفجر سامح ثائرا وكأنه ينفث غضباً مكتوماً من سنين .
ـ يا هانم ده مش كلام جرايد . . دى حرب شغاله ليل ونهار ، فيها نـاس بتموت وناس بتتعور . . لكن للاسف اللى زيك مايعرفش احنا بنعمل ايه هناك .

ـ وايه الفايده من اللى بتعملوه ده .
وشعر بأن كلماتها الثلجية تنقلب فى داخله إلى جمرات من النار .
ـ الفايده يا هانم ان الناس اللى فى مصر دى كلها بتنام وهى مش خايفه على نفسها ، الفايده ان المدارس شغاله عادى ، الفايده ان المصانع لسه بتنتج والفلاحين بتـزرع . . الفايـده ان حضرتـك وشلتك بتقـدروا تروحـوا النـادى وتسهـروا فى الاوبرج ، عرفتى ايه الفايده من اللى بنعمله .
وشعر بأنه افرغ بعضاً من غضبه ، وان كان مازال فى داخله الكثير ، ولكنه لايبوح به . . لكن شد ما ادهشه بعد هذا الشجار ، ان هناء لم تصبح شهية فى عينيه كما كان يراها من قبل . . بل ان معاشرتها ليلة السفر لم تشعره بأية متعة كما تعود من قبل .

ومرت الأيام خاطفة سريعة ، مشحونة بالعمل الشاق من تدريب إلى تجهيـز وتفتيش على معدات وأفراد الكتيبة ، وفى المسـاء يعود إلى الخنـدق المدفـون تحت الأرض وسقفه قضبان حديدية مقوسة على شكل نصف دائرة مغطاه بشكائر الرمل ، حتى أصبح الاسم الدارج للخندق « قفص القرد » . . ولانه قائد الكتيبة الهندسية فقد كان خندقه يتميز بكنبة وفوتيه خشب بجوار السرير بالاضافة إلى ترابيزة عليها التليفون . . وفى اليوم السادس اشتاق إلى ان يكلم هناء بعد أن ذبل غضبه منها . .
ـ الو . . واحشانى يا هناء . .
ـ حاتنزل امتى يا سامح ؟ . . وفكرت فى موضوع اونكل عبد الرحمن ياترى ؟
ـ قلنا بلاش كلام فى الموضوع ده . . انت اخبارك ايه ؟
ـ باقولك ايه . . عيد ميلادى بعد ٨ ايام وعزمت العيله كلها واصحـابنا ،

اوعى تقول مش حاأقدر انزل اجازه .

ـ لسه بدرى ويحلها الحلال ، انشاء الله يومها حاحاول آخد إذن ست ساعات ، وكل سنة وانت طيبه .

ـ يعنى لو نزلت قبلها بيوم حاتتهد الدنيا

ـ طيب ، طيب . . انا عايز اطمئن عليكى ، انت عامله ايه ؟

ـ عايشه . . يعنى حاعمل ايه .

وانتهت المحادثة على غير ما كان يبغى ، بل انها نكأت جراح الاجازات ، وايقظت فى نفسه الهموم السابقة التى كان يتجرعها فى كل شهر من هناء . . فاستلقى على السرير بالأفرول مغمض العينين ، واخذ يستعرض شريط حياته مع هناء منذ ثلاث سنوات هى عمر زواجهما ، إلى أن غلبه النعاس .

وهب من نومه مذعورا ، لكنه تمالك نفسه فى ثوان معدودة ، فقد ايقظته صفارة الانذار معلنة عن غارة اسرائيلية ، وكان الجميع قد تعود على تلك الغارات فاصبحت لا تهز فيهم شيئا . . ودس قدميه فى الحذاء واندفع إلى سطح الارض ، واخذ يتأكد بنفسه ان كافة معدات وافراد الكتيبة فى الخنادق . . وفى دقائق كان يلقى بنفسه مرة اخرى تحت الأرض فى الخندق المجهز كمركز للقيادة .

ـ صباح الخير يافندم ، الكتيبه عندى تمام .

ـ اهلا يا سامح ، اقعد أما نشوف حايخلصوا امتى ولاد الهرمه دول .

جاءت كلمات قائد الفرقة باردة متثاقلة من طول ما تعودوا على تلك الغارات ، خاصة وان كل دورهم هو تجنب قنابل الطائرات المهاجمة باللجوء إلى الخنادق تحت الأرض .

ـ الضرب تقيل قوى النهارده يافندم .

ـ منهم لله ، كان ورايا حاجات كتير قوى النهارده ، اهى عطله والسلام

ـ دى قنبلة ألف رطل ، انا ودنى ما تخيبش ابدا .

ـ امال . . خبره كبيره فى قنابل اليهود .

ـ أمال الدفاع الجوى بتاعنا فين ؟

ـ قيادة الجيش بتبلغ أن الصواريخ بتاعتنا دمرت طياره .

ـ رشة سجاير يافندم تحيه للطياره اللى وقعت .

وانتهت الغارة الاسرائيلية وخرجوا جميعا من مركز القيادة ، وشمس النهار الساطعة تبهر عيونهم ، فقد كانوا مثل سجناء خرجوا من جب عميق .

وعاد سامح إلى كتيبته يملؤه حماس غريب ، واقبل على عمله بكل حواسه ومشاعره حتى انه لم يشعر بمرور وقت الغذاء . . وفى السادسة وقف مستندا على غطاء محرك العربة يتناول بعض السندويتشات ، مستمعا إلى راديو صغير كان يحمله فى جيبه . . واندهش لمقدم احد الضباط ملهوفا .

ـ طالبين سيادتك عند قائد الجيش حالا يافندم .

وفى دقائق كان سامح يطرق باب مكتب قائد الجيش الثانى ، الذى كان فى انتظاره ومعه مساعد الوزير . فشعر سامح أن فى الأمر شيئاً على درجة كبيرة من الأهمية ، وأدى التحية العسكرية وقلبه يتوجس من سبب هذا الاستدعاء ، لكن قائد الجيش قدمه لمساعد الوزير بطريقة خففت من توتره كثيرا .

ـ الرائد سامح قائد الكتيبه ومن أحسن المهندسين اللى فى الجيش . . اقعد يا سامح .

وجلس سامح وقد زالت رهبته وشحذ حواسه لكل ما سيقال .

ـ شوف يا سامح ، فيه مهمه خاصه على درجه كبيره من الأهمية والسرية ، واخترناك انت لها ، علشان متأكدين ان انت حاتنفذها على أكمل وجه .

والتقط سامح النوتة الخاصة به ليدون كل التعليمات .

ـ تحت أمر سيادتك .

ـ الغاره اللى حصلت النهارده الصبح المخابرات والاستطلاع اكتشفوا ان كان مقصود بيها مخازن وقود الصواريخ اللى فى التل الكبير . وطبعا لو كانوا ضربوها كانت بقت كارثه ، لأن ده المخزن اللى بيمون صواريخ الدفاع الجوى كلها اللى فى الجبهه . . فاحنا قررنا ننقل الوقود ده لمكان تانى ، والنقل يبدأ الليله ، المكان الجديد عند الدشم الخرسانيه اللى بعد بنها بحوالى عشرين كيلو متر .

وتدخل قائد الجيش فى شرح المهمة وسامح يكتب معظم ما يقال .
ــ دلوقت انت تحت قيادتك ٢٨ جرار ومعاهم ٣٠ سواق ، والخزانات بتجهز دلوقت ، أوامر التحرك جاهزه وحاتاخدها وانت ماشى دلوقت ، ومعاك ٤ ظباط مساعدين لك ، والعساكر علشان التفريغ فى بنها جاهزين . . التحرك من التل الكبير لغاية الزقازيق لازم يكون بالليل ، والمده المحدده للنقل ١٠ أيام من دلوقت .
وتدخل مساعد الوزير قاطعا الأوامر التى يتلقاها الرائد سامح .
ــ بس أنا متأكد إن سامح حايقدر يخلص المهمه فى أقل من ١٠ أيام .
ــ ربنا يسهل يافندم .
ــ عموما كل يوم بدرى عن العشره تاخده اجازه يا سامح .

ونهض سامح مسرعا بعد أن استفسر عن بعض التفاصيل ، وعلى الفور اصطحب الضباط المساعدين واتجه إلى مستودع الوقود . . وفى طريقه إلى التل الكبير استرجع كل تفاصيل المهمة المكلف بها وطريقة التنفيذ ، وتوجس فى نفسه من أن يفشل فى التنفيذ ، خاصه وأن المدة المحددة كانت حرجة للغاية والسرية المطلوبة كانت تؤرقه . . لكنه شعر فى داخله بزهو وارتياح أنه اختير لهذه المهمة .

وفى التل الكبير اجتمع بكل المشاركين فى تنفيذ المهمة ، وشرح لهم ما هو مطلوب منهم ، ودرجة أهمية العمل المكلفين بتنفيذه . . وسعد بحماس السائقين والجنود الذين طلبوا أن يكون العمل مستمراً وبأقل فترات راحة ، مما جعله يتقابل معهم فى تلك النقطه قائلاً :
ــ أنا عارف انكم قد المسئوليه ورجاله ، وانشاء الله حانخلص قبل العشر أيام .
وانقلب المستودع إلى خلية نحل ، الكل يتسابق فى العمل ، والكل يؤدى واجبه ويساعد فى أداء واجب الآخرين دون أن يطلب منه . . ومضت الساعات والكل يسابق الزمن لكى يتم التحرك قبل أن يبلج ضوء الصباح ، ونجح سامح ومجموعته فى هذا . . .

وعلى الطريق وفى الظلام الدامس والصمت المطبق إلا من أصوات نقيق

الضفادع ، انطلق سامح بخياله إلى القاهره حيث هناء زوجته . . لابد وأنها تغط فى نومها الآن ، وتقول إننا فى الجبهة بلا فائدة . وأين كانت فى المساء والكل هنا يلهث كى نتحرك فى الظلام ؟ . . لابد وأنها فى السينما أو فى النادى مع الشلة . . ناس تشقى وتلهث وناس تحتار فى كيفية قضاء الوقت .

ــ بعد إذنك يافندم نقف فى الزقازيق علشان نصلى الفجر .

وانطلقت العربات بعد الصلاة ، وضوء الفجر يكتسح ظلام الليل أمامه ، ومع إشراقة الشمس كان الفلاحون منطلقين إلى حقولهم فى همة ونشاط ، والقرى على الطريق نفضت عن نفسها الكسل ودبت فى بيوتها الحياة والحركة . وكان لابد للعربات من وقفة كى يتناول السائقون بعضا من الطعام .

ــ حانقف فى منيا القمح نص ساعه ، الناس تاكل لقمه وتشرب شاى .

وفى النهاية وصلت العربات إلى الموقع الجديد للتخزين ، وتكرر ما حدث فى التل الكبير ، الكل يتسابق فى سرعة تنفيذ عملية التفريغ ، كى يسرع بالعودة لعمل النقلة التالية ، ورغم الشمس الحارقة التى أصبحت فى وسط السماء تقريبا إلا أن العمل انتهى بأسرع مما توقع سامح ، فشعر بأن البداية تبشر بالخير وأنه سينجح .

لكن بتكرار العمل ليلا ونهارا بدأت المشاكل فى الظهور ، فقد تعطلت بعض العربات ، وانحرفت إحداها عن الطريق كما حل التعب والإرهاق بالسائقين . . وأصبح يعمل حساب للثانية والدقيقة ، خاصة وأن الغارات الإسرائيلية على المنطقة اشتدت عنفا وضراوة .

ــ يافندم انا صاحى والله ، العربيه انحرفت منى علشان اللى طلعت لى منين مش عارف . . الشبورة تقيلة والجاموسة شفتها فى آخر لحظة .

ــ كمل انت يا شاويش على بقية العربيات علشان نلحق وقتنا وانا حاستنى لغاية مانطلع العربيه بتاعة صبحى .

واندفع الفلاحون من الحقول بمجرد ان طلب سامح منهم المساعدة ، وفى دقائق كان حوله مائة فلاح من مختلف الأعمار . . ولم يندهش سامح إلا مع شيوخ فوق الستين جاءوا يعرضون المساعدة أيضا . . وفى دقائق كانت العربة مكبلة بالحبال التى أحضرها هؤلاء الفلاحون ، وبناء على تعليمات سامح بدأوا يسحبون العربة بكل

ما أتاهم الله من قـوة ، حتى تصبب منهم العرق رغم رطـوبة الصبـاح ، ونفرت العروق من الرقاب والسواعد حتى أخرجوا العربة أخيرا وأعادوها إلى الـطريق ، وتنفس سامح الصعداء بعد هذه الساعة العصيبة . . لكن عاجلته دراما الحياه بلفتة عقدت لسانه ، حين وجد بعد كل هذا امرأه فى الأربعين قادمة إليه وهى تحمل صينية عليها بعض من الخبز والجبن لكن بكميات كبيرة وتتبعها صبية فى عمر الزهور تحمل صينية أصغر عليها أكواب فارغة براد الشاى . .

ــ اتفضل ياسى الاستاذ انت وزملاءك كلوا لقمه تصلب طولكم .

وانتفض قلب سامح من الانفعال والقشعريرة والعاطفة التى انتابته ، فقد شعر فى كلمات المرأة البسيطة بحلاوة التعاطف الانسانى والمودة . . وكادت دمعة تطفر من عينيه تأثرا من موقف الفلاحين الذين أخرجوا له العربة ثم زاد عليه موقف تلك المرأة . . ملأه إحساس بأن هؤلاء هم أهله وعزوته الذين يحارب من أجلهم هو وباقى زملائه فى الجبهة .

وفوجىء فى اليوم الخامس من المأمورية بقـائد الجيش يـزوره فى التل الكبـير ليطمئن على سير المهمة بنفسه ويذلل له أية عقبات .

ــ يعنى مفيش أى مشاكل ؟

ــ الحمد لله يافندم المأمورية ماشيه كويس قوى . . وحـانخلص قبل الميعـاد انشاء الله .

ــ مش عايز أى عساكر زياده هنا أو فى موقع التفريغ ؟

ــ لو سيادتك شفت الناس بتشتغل ازاى مش حاتصـدق يافنـدم . . تصور سيادتك فى موقع التفريغ الفلاحين بيقعدوا منتظرين بالساعات لغاية مانـوصل ، وكل واحد يقدر يعمل حاجة بيعملها من غير ما نطلب منه أو يعرف احنا مين . . مجرد أنهم عرفوا أن احنا الجيش ، والله يافندم الستات يقولوا لىّ عايزين نعمل أى حاجة . . ده غير الاهالى فى الطريق . . تصور يافندم كل يوم الفجر نلاقى الاكل والشاى نازل من بيوت الناس واحنا واقفين فى منيا القمح ومن غير ما يسألوا احنا مين ولا بنعمل ايه ، لقونا كل يوم فى نفس الميعاد بنعدى عليهم ، اتطوعوا يفطرونا كل

يوم . . علشان كده السواقين دى يافندم ماشفتش طعم النوم اكتر من ساعتين فى اليوم ، لدرجة انى مش مصدق ان فيه بنى آدم يقدر يستحمل ده كله .

ــ ده اللى انا كنت متأكد منه يا سامح ، ولكن عايزك تريح السواقين شويه علشان مش عايز أى حوادث . . وانت كمان لازم تستريح . .

وانصرف قائد الجيش بعد أن اطمأن على سير العمل ، وعلى الفور انطلق سامح الى مساعديه من الضباط والسائقين حتى يتجهزوا للتحرك فى الموعد المحدد .

ــ اذا كان فيه حد تعبان يارجاله يقول ، احنا عايزين المهمة تتم من غير حوادث .

ــ احنا كويسين يافندم ومفيش اى حاجة وسيادتك ماتخفش كله حايتم مضبوط انشاء الله . . . وتوالت الرحلات بحماس وتفانى ومعدلات إنجاز أكبر مما كان موضوع فى الخطة التى كان يسير عليها سامح . . وانتعشت نفسه وأحس بنشاط دافق يتملكه فقد تأكد أن هذا المعدل من الأداء سيوفر يومين وسينجز المهمة فى ثمانية أيام فقط .

وفى اليوم السابع تعطلت إحدى العربات ، ولكى يتأكد من عدم ضياع أية دقيقة فى إصلاحها ذهب بنفسه الى مدينة بنها ليحضر قطعة غيار مطلوب تصنيعها فى أحد ورش الخراطة .

ــ نص ساعة ياكابتن وتكون جاهزة . . اتفضل استريح .

وجلس أمام الورشة يحتسى كوبا من الشاى ، ولمح على بعد خطوات من الورشة السنترال الحكومى فخطر له أن يتصل بهناء .

ــ أسبوع ما تفكرش تتكلم والا تنزل مصر . . كل مرة أخرج مع الشلة ابقى لوحدى .

ــ ياهناء عندى شغل مهم ومش فاضى .

ــ وياترى حاتفضى بكره علشان عيد ميلادى والا برضه الشغل ؟

ــ لأ ربنا يسهل وأقدر أنزل انشاء الله .

ــ نفسى أعرف بتشتغلوا ايه إذا كان اليهود كل يوم غارات على الجبهة وانتم

ولا بتردوا عليهم ولا حاجة . . يبقى شغل ايه اللى مخليك قاعد عندك ؟
وشعر سامح أن صوتها فى التليفون كريه ولزج ويجعله يشعر بالغثيان
ــ طيب . . طيب . . كل سنة وانت طيبة .
وعاد إلى ورشة الخراطة مكتئبا صامتا ، وقد حاول الأسطى صاحب الورشة أن يتجاذب معه أطراف الحديث فكان يجيبه وهو يفكر فى أشياء أخرى
ــ كام ياعم الأسطى ؟
ــ ولا مليم ياكابتن . . هو احنا عملنا حاجة .
وطال الحوار بينهما وكل منهما يصر على موقفه إلى أن استسلم سامح فى النهاية .
ــ لا شكر على واجب ياكابتن . . ده تبرع للمجهود الحربى . . أصل أنا ولا مؤاخذه راجل كبير وما انفعش اروح الجيش ، لكن أخويا فى الصاعقة عسكرى قد الدنيا . . ربنا انشاء الله حاينصرنا على أيد الكباتن اللى زى حضرتك .
ودعه صاحب الورشة فى شبه مظاهرة . . . وما أن وصل إلى موقع التفريغ حتى وجد طاقم الفنيين فى انتظاره ، وفى دقائق كان الجميع يتسابق لإصلاح العطل حتى تتحرك القافلة فى أسرع وقت ممكن . . وكان باقى الموقع يعمل بلا هوادة والتفريغ على قدم وساق بواسطة الجنود والفنيين يساعدهم عشرات الفلاحين المتطوعين . .

وأقبل على سامح شيخ معمم يبدو من هيئته أنه من أعيان الفلاحين ، خاصة وأن خلفه يسير اثنان من الخفراء . وتبادل مع سامح التحية وكأنه يعرفه من فترة طويلة . .

ــ أهلا ياباشمهندس . . أنا عمك شلتوت عمدة كفر شلتوت .
ــ أهلا وسهلا ياعمدة .
ــ لا أنا زعلان خالص . . . بقى تبقوا هنا جنب بلدنا بقالكم أسبوع واحنا ما نعرفش نقوم بالواجب معاكم . . . هو احنا بخلا ياباشمهندس . . . ده أنتم ولادنا برضه . . . واحنا ناس فلاحين نعرف الأصول برضه . . . . أنا عرفت ان انت الريس بتاع الناس دى كلها . . . ما يلزمكش أيها مساعدة أو أى حاجة يعنى ؟
ــ كتر خيرك ياعمده . . . الناس هنا مش متأخرين عننا فى أى حاجة . .
ــ على العموم أنا وزعت على العساكر الأكل بتاعهم وانت بقى غداك أهه .

وعلى الفور قام أحد الخفراء بتقديم لفة ضخمة واضح من حجمها أنها مليئة بخيرات الريف .

ـ كتر خيرك ياعمدة ، بس أنا كلت والحمد لله .

ـ تلاتة بالله العظيم لازم تاخده يعنى لازم تاخده .

ولم يجد سامح بداً من قبول هدية العمدة ووضعها فى العربة . . ثم فوجىء سامح بالعمدة يتنحى به جانبا بعيدا عن الخفراء والجنود ، ويدس فى يده مبلغا من المال .

ـ أنا زى والدك يابنى ، والفلوس دى خليها معاك يمكن تحتاجها فى الطريق .

وعقدت الدهشة لسان سامح وارتبك ، ثم فى لحظات استوعب مشاعر ذلك العمدة الطيب ، فقد كان يعرف من أقاربه الفلاحين أن إعطاء النقود للشخص هو قمة الكرم ، وتعبير عن المحبة . . لكن فى النهاية استطاع رد النقود للعمدة بعد عناء طويل .

وتمت عمليات النقل فى اليوم الثامن وانتهى تفريغ القافلة فى العاشرة صباحا . . فأصدر سامح أوامره بأن يستريح الجميع حتى الثانية ظهرا ثم يبدأ التحرك الأخير للعودة . وكان الجميع فى أشد الحاجة إلى تلك الراحة بعد أن قضوا ثمانية أيام كاملة شبه مستيقظين والعمل مستمر ليلا ونهارا .

وتبدأ رحلة العودة الأخيرة ، والفرح يعم الجميع بعد أن تم تنفيذ المهمة بنجاح تام وفى زمن قياسى . وكان وداع الفلاحين لهم بعد أن عرفوا أنهم لن يعودوا مرة أخرى مثيرا للتأمل . . . فقد كان الجميع يصافحونهم ويقبلونهم وكأن بينهم وبين فلاحى المنطقة مودة قديمة ، بل إن النساء كن يطلقن زغاريدهن فرحة بهؤلاء الرجال . .

ـ ربنا ينصركم على أعاديكم .

وتحركت القافلة مشيعة بالدعوات والهتافات . . . رغم أن الجميع لم يكن يعرف

ماذا كانت تفعل تلك القافلة أو ماذا كانت تنقل . . . وانتاب سامح شعور طاغٍ بالوجد ، فقد تركت تلك المهمة فى نفسه أشياء كثيرة . . . وترك سامح من روحه ومن نفسه قطعة فى كل شبر من هذا الطريق . . . وانغرس فى كيانه شريط حافل لن تمحوه حتى السنين . . عيون السائقين المجهدة وهى أشبه بكاسات الدم . . . منازل منيا القمح التى كان يخرج منها الإفطار والشاى . . . لم يعرف استمتاعا بطعم الشاى إلا من يد تلك الصبية عندما تعثرت إحدى العربات . . . الليالى الطويلة التى قضاها بلا نوم وذقنه التى طالت . . صاحب ورشة الخراطة . . . الفلاحون وهم يتقاتلون لرفع العربة التى انحرفت عن الطريق . . العمدة الذى أصر أن يعطيه النقود . . . وتذكر فى هذه اللحظة لفافة العمدة وشعر وكأنه جوعان منذ عام . . . . وكانت سعادته غامرة حين وجد فى اللفافة حماماً محشياً ، وقام باقتسامه مع السائق وأكل كما لم يأكل فى حياته من قبل . .

وقبل هبوط الظلام كان قد اغتسل وحلق ذقنه وتوجه إلى قائد الجيش ليبلغه بتمام تنفيذ المهمة شخصيا .

ـ برافو يا سامح . . . الحقيقة مجهود عظيم اتعمل منك انت والناس اللى كانوا معاك . . الكل مبسوط قوى من اللى اتعمل . . . وأنا بصفة شخصية باشكرك ومقدر مجهودك واخلاصك . . وانت أثبت ان رأيى فيك كان فى محله . . . أرجو انك تستمر كده ياسامح .

ـ العفو يافندم . . . أنا ما عملتش غير الواجب .

ـ أظن دلوقت يابطل نفسك تنام عشرين ساعة . . . بلغ المجموعة كلها أجازة ثلاثة أيام مكافأة لهم ، وأنت تاخد عربيتك وتنزل أجازتك على طول . . . وعايز أشوفك لما ترجع بعد الأجازة طبعا الكل حايحسدك على الأجازة ، لكن تستاهلها .

وانصرف سامح من عند قائد الجيش وهو سعيد بهذا التقدير الذى ناله . . . واتجه إلى مقر الكتيبة وسلم على الضباط ودخل إلى « قفص القرد » الخاص به واستلقى على السرير ثم نظر فى ساعته فوجد أنها السابعة . واكتشف أنه يمكن أن

يحضر عيد ميلاد هناء زوجته ، لكن قفزت إلى ذهنه كلماتها عن الحرب خاصة المكالمة التليفونية الأخيرة . مما جعل رغبته فى النزول إلى القاهرة تفتر . . . واستمر مترددا بين أن ينزل إلى القاهرة أو يبقى إلى أن استسلم لرغبته فى النوم . . . واستيقظ فى الخامسة صباحا . وفى السابعة صباحا كان يدخل شقته فى القاهرة . . . وكما توقع كانت أثار الحفل فى أماكنها . . بقايا الطعام مازالت على البوفيه ، الأثاث غير مرتب ، الزينات تهدلت من السقف . . واستيقظت هناء ومكياج الأمس ما زالت بقاياه على وجهها .

ــ صباح الخير . . وكل سنة وانت طيبة .

ــ وانت طيب . . . ما كنتش قادر تاخد أجازه وتيجى امبارح . . . كان وراك ايه يعنى ؟ طيب ده كل أصحابنا كانوا موجودين ، وكانت بارتى تجنن وقعدنا سهرانين لغاية الفجر . . . ما أخدتش أجازة ليه بقى ؟

ونظر إليها نظرة باردة ولم يجد جسدها شهيا أو مثيرا كما تعود فى المرات السابقة ، وخلع ملابسه ودلف إلى السرير لينام . .

ــ أبدا كان ورايا شوية شغل .

القفص الطائر

اندفع طيارو السرب إلى استراحة الطوارىء متزاحمين على بابها الضيق بعد أن شاهدوا قائدهم قادما فى عربته وبصحبته العقيد طلعت قائد اللواء الذين هم أحد أسرابه . . وفى لحظات انتظموا فى جلستهم داخل الاستراحة يترقبون ما سيقوله قائد اللواء . . وقطع الرائد زكريا قائد السرب الصمت الذى خيم عليهم :

ــ سيادتك تشرب شاى ؟

ــ لا قول للعسكرى يجيب لى قهوة سادة فى كباية .

والتفت إلى طيارى السرب .

ــ اللى عايز يشرب حاجة يطلب ، واللى عايز يدخن يتفضل .

وعلى الفور علق أحد الطيارين :

ــ أنا عايز أدخن يافندم بس معييش سجاير .

وضحك الجميع وخفف ذلك من الرهبة التى كانت تسود المكان . . وانطلقت أعواد الثقاب تطرقع فى الهواء فقد كان معظم الطيارين من المدخنين .

ــ حاتكلم معاكم دلوقت على الطلعة اللى حانعملها بعد العصر . . الأوامر ٨ طيارات حاتهاجم منطقة العدو اللى فى رمانة وأربع طيارات حاتهاجم موقع الهوك اللى فى بالوطة . . الرائد زكريا هو اللى حايتولى مهاجمة صواريخ الهوك وأنا قائد التشكيل اللى حايهاجم رمانة . .

واستمر العقيد طلعت لمدة ساعة كاملة يشرح تفاصيل الطلعة ويدقق المهام على كل طيار من المشاركين فى الطلعة ويكرر الأوامر أكثر من مرة . . وكان سر هذا التكرار أنها المرة الأولى التى يشارك فيها طياروه الذين تحت قيادته فى مهاجمة مواقع اسرائيلية فمنذ بدأت الحرب وهو يقود الأسرار الثلاثة التى تحت قيادته من على الأرض فى غرفة العمليات . . لكنه فى هذا اليوم تملكه شعور بأنه لابد وأن يكون معهم فوق المواقع الإسرائيلية .

وتخيل طلعت أن الطيارين يسودهم التوتر رغم أن جميعهم قد هاجم المواقع الإسرائيلية عدة مرات من قبل فأنهى أوامره وهو ويشعل سيجارة من العلبة الثانية رغم أن الساعة كانت ما زالت الواحدة ظهرا .

ــ ربنا معانا وحايوفقنا انشاء الله . . أى أسئلة ؟

وكان طبيعيا بعد هذا الشرح المطول والتلقين التفصيلى ألا تكون هناك أية أسئلة فانصرف الجميع خارج الاستراحة . . واصطحب العقيد طلعت زكريا وجلسا منفردين فى منطقة مزروعة بالخضروات خلف دشمة إحدى الطائرات .

ــ زكريا انت حاتعدى القناة قبلى بدقيقة علشان أدخل أنا والتشكيل بتاعى بعد انت ما تكون دمرت الهوك . . عايزين نعمل نتيجة كويسة ومن غير خساير انشاء الله .

وكان زكريا قائد السرب يشعر بما يدور فى نفس قائده من قلق وانفعال فأشفق عليه من عناء هذا الإحساس .

ــ يافندم مافيش داعى للقلق اطمئن . . والطلعة حاتتنفذ زى ما سيادتك قلت بالضبط ، الطيارين عندى فى السرب ملتزمين قوى .

وشعر طلعت بأن زكريا يعرف ما يدور بداخله فأراد أن يتخفف من بعض ما يعانى خاصة وأن زكريا تربطه به مودة خاصة بعد أن خدم تحت قيادته خمس سنوات ، تولدت عنها صداقة شخصية بصرف النظر عن اختلاف الرتب والمناصب بينهما .

ــ نفسى يازكريا الطلعة بتاعة النهاردة تجيب نتيجة كويسة . . أنا أصلى فى حرب ٦٧ انضربت ومش قادر انساها لغاية النهاردة .

وقطع حديثهما أحد الضباط الإداريين فى السرب الذى همس فى أذن زكريا بشىء جعله يستأذن منفعلا وما أن ابتعد قليلا حتى سمعه طلعت وهو يهدد ويتوعد بصوت عال ثم عاد إلى مجلسه وهو ينتفض من آثار ثورته .

ــ ايه يازكريا فيه ايه ؟

ــ يافندم بنعمل أرجوزات علشان نحافظ على العربيات اللى فى السرب . . وسواق غبى حرق موتور العربية علشان سايق من غير ميه .

ــ طيب هدى نفسك . . يدخل مكتب بكره ويتخصم عليه تمن الموتور .

وانقضت الساعات الباقية على موعد الطلعة وانطلقت الطائرات فى موعدها وماهى إلا عشر دقائق إلا وكانت الطائرات تعبر قناة السويس واطمأن طلعت لما رأى طائرات التشكيل زاحفة حوله فى أماكنها تماما . . وفى الوقت المحدد على الخريطة ارتفعت طائرات التشكيل فوق الموقع الاسرائيلى وفى ثوان معدودة وبتعليمات منه انقلبت المنطقة إلى كتلة من الجحيم ، فقد اندفع طيارو التشكيل يقذفون المرقع الإسرائيلى بقنابلهم وصواريخهم المغلفة بحقد غريزى لكل ما هو إسرائيلى فى الوقت الذى كان الموقع الإسرائيلى يبادلهم النيران من مواسير المدافع المضادة للطائرات وكأنها خراطيم لهب مستمرة .

وفى خضم نشوة الجميع بقرب نجاح مهمتهم بعد أن شاهدوا آثار النيران وقد بدأت تستشرى فى الموقع . . جاء صوت العقيد طلعت فى جهاز اللاسلكى :

ــ زكريا . . أنا انضربت فوق الموقع وراجع .

كانت طائرة طلعت قد أصيبت من طلقات المدفعية المضادة للطائرات مما جعلها ترتج بعنف شديد لكنه استطاع بخبرته الطويلة السيطرة عليها قبل ارتطامها بالأرض بأمتار قليلة . . وعقدت المفاجأة ألسنة الجميع ، وران عليهم الصمت للحظة حتى جاء صوت زكريا فى جهاز اللاسلكى مندفعا كالطلقات :

ــ خير يافندم . . الطيارة سليمة . . سيادتك فين بالضبط ؟

ــ أنا بعدت عن الموقع حوالى خمسة كيلو متر وارتفاعى ١٠٠ متر .

ــ انشاء الله سليمة ياقومندان . . نقيب صلاح يقود التشكيل ويرجع المطار

على طول . . وأنا حاطير حماية جنب سيادتك .

وجاء صوت العقيد طلعت حادا متماسكا :

ـــ كل الطيارات ترجع . . مش عايز حد جنبى . . زكريا ارجع مباشرة على المطار .

كان ما دار فى خاطره أن الطائرات الإسرائيلية على وشك الوصول إلى المنطقة لاعتراض طائرات التشكيل ، والمهمة قد نجحت تماما ولا داعى لخسارة طائرة أو اثنتين من التشكيل فى قتال جوى غير متكافىء . خاصة وأن الوقود فى الطائرات يكفى للعودة فقط .

وانتبه طلعت إلى طائرته يتفحصها فوجد أنها تعمل بقدرة ضعيفة للغاية فأيقن أنه لن يصل القناة إلا بمعجزة .

ـــ الطيارة فيها دخان فى الكابينة ، لكن خفيف . . السرعة ٣٠٠ كيلو بس ومش عايزة تزيد . . المحرك تقريبا بيشتغل ٧٠ ٪ منه . . البوصلة عطلانة

ـــ يافندم خللى الشمس فى وشك . . وسادتكم حاول تعدى غرب القناة ونط بالبراشوت ..

وعم الصمت فى أجهزة اللاسلكى مرة أخرى ، فلم يكن فى مقدور أى من طيارى التشكيل الذين فى طريق العودة إلى المطار أن يفعل له شيئاً . . حتى زكريا الذى امتثل لأمر العودة أيضا ، شعر فى تلك اللحظة كم هو يحب طلعت ، لكن كلماته لم يكن لها فائدة تذكر .

وتملك طلعت إحساس مرير بالعجز ، فمصيره قد أصبح مرهوناً بما ستفعله تلك الكتلة الحديدية الطائرة . . شعر وكأنه مكبل بسلاسل غليظة وهو البعيد عن الأرض المحلق فى الفضاء الرحب ! . . المسافة إلى قناة السويس أربعون كيلو متراً . . سيمر فوق مواقع إسرائيلية وبسرعته هذه وارتفاعه هذا ستجهز عليه تلك المواقع بصواريخها ومدفعياتها . . وآه لو لمحته الطائرات الإسرائيلية القادمة لاعتراضهم ، سيكون صيدا سهلا لهم . . والبراشوت لن ينفتح إلا إذا ارتفع إلى ثلاثمائة متر ، فهذا هو أقل ارتفاع لفتح المظلة . . السرعة ثلاثمائة كيلو متر فى الساعة ولو تناقصت ثلاثين كيلو فقط ستهوى الطائرة إلى الأرض ، خاصة وأن

ارتفاعه مائة متر فقط . . يحاول أن يكسب بعض الارتفاع لكن الطائرة تتمنع ولا تستجيب وكأنها امرأة لعوب .

ـ سيادتك فين دلوقت ؟

ـ داخل على القناة كمان ثلاث دقائق .

يدعو ربه أن يعبر القناة . . فهو لا يريد أن يهبط اضطراريا عند اليهود . . سيتم أسره دون شك . . والأسير انسان منزوع الإرادة رغم إرادته . . رتبته ومنصبه كقائد لواء جوى ستجعله مكسباً كبيراً لهم . . يمكن بوسائل التعذيب الحديثة أن ينتزعوا منه كل معلوماته . . الأسير يرجع بشخصية مختلفة تماما . . بناته الثلاث سيفتقدهن . .

ـ أنا فوق القناة بالضبط . . نفس الارتفاع ونفس السرعة ومتجه للغرب .

تنفس بعمق وهو يرى لون الحقول الخضراء ممتدة أمامه والفلاحين يلوحون له بأيديهم . . وحاول مرة أخرى أن يكتسب بعض الارتفاع ، وانتفض قلبه فى صدره وهو يرى الطائرة وقد بدأت تستجيب ببطء ، لكن فرحته ماتت سريعا حيث توقفت عن الارتفاع بعد ثمانين مترا فقط .

ـ تشكيل أسد على أرتفاع ٤٠٠٠ متر . . السرعة ٩٠٠ كيلو فى الساعة . . الاتجاه ٢٣٠ درجة .

جاءت تلك الكلمات من أحد قادة التشكيلات العائدة من المعركة كى تعيد إليه الإحساس بالعجز وبصعوبة موقفه وهو مكبل فى ذلك القفص الطائر ، لكن سخريته غلبته فهو على الأقل قد استبعد فكرة أن يكون أسيراً .

ـ ٤٠٠٠ متر ياظالم وأنا نفسى ٣٠٠ متر بس .

ومرت الدقائق بطيئة متلاصقة . . وبدأت معالم المطار تظهر عن بعد فانتابه إحساس غامر بالطمأنينة ، فالطائرة ستصل إلى المطار ، وبدأ برج المراقبة ينادى عليه .

ـ مكانك فين دلوقت يافندم ؟

ـ حوالى ١٥ كيلو متر من المطار وحانزل فى المطار انشاء الله .

وعلى الفور أصدر زكريا الذى توجه إلى برج المراقبة فور هبوطه أوامره لعربة

المطافىء والاسعاف ومعها طبيب القاعدة أن يكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة أية عواقب قد تنجم بعد نزول الطائرة . .

واقتربت الطائرة فى خط مستقيم باتجاه الممر وأنزلت عجلات الهبوط وتنفس زكريا الصعداء فقد كان هناك شك كبير فى نـزول تلك العجلات ، خـاصة وأن الطائرة مصابة فى أماكن كثيرة . . وأقتربت الطائرة ببطء واضح لكن زكريا كان يشد من أزر طلعت بكلمات مطمئنة حيث المرحلة الأخيرة هى أصعب مراحل الهبوط . . وقبل بداية الممر بأمتار قليلة وكانت الطائرة على ارتفاع ثلاثين متراً تقريبا ، صرخ طلعت فى جهاز اللاسلكى :

ــ الطيارة بتحدف شمال ومش قـادر أسيطر عليهـا . مفيش كونتـرول على عصاية القيادة . وفزع زكريا من هول منظر الطائرة وهى غير مسيطر عليها ، لكنه حاول أن يوجه طلعت إلى أى شىء قد يكون فيه نجاته وهبوطه سالما .

ــ استعمل الدفة اليمين . . الدفة اليمين .

لكن الوقت لم يمهل زكريا أو طلعت لعمل أى شىء فقد اندفعت الطائرة إلى الأرض الطينية الموجودة بين ممرات الهبوط . . وما أن لامست الأرض حتى أخذت فى الاندفاع تارة لليمين بعنف ثم ترتد إلى اليسار بأعنف ، وكأنها ثور أسبانى جامح ، والأجنحة ترتفع فجأة ثم تهوى فجأة ، كل ذلك وسط أتربة مثارة تحيط بالطائرة من كل جانب . . وأخيرا استقرت بعد مئات الأمتار من برج المراقبة .

واستشعر زكريا فى نفسه أن طلعت لابد وأن يكون قـد استشهد فلم يحـاول الذهاب إلى مكان الطائرة ، وخرج إلى الخلاء ينظر إلى الأرض وهو غير مصدق .

ولم يشعر كم مضى عليه من الزمن وهو على هذه الحالة حتى فوجىء بطاقم برج المراقبة وهو يصرخ وينادى عليه . . فالعقيد طلعت كتبت له النجاة وهو حاليا فى الاستراحة الخاصة بالطيارين ولم يشعر زكريا إلا بأنه فى ثوان كان أمام الاستراحة واندفع كالصاروخ من بابها الضيق فوجد طلعت ممدا على أحد الأسرة المخصصة لمبيت طاقم الطوارىء . . ولم يشعر بنفسه إلا وهو يرتمى فوق طلعت وهو يبكى دون

وعى فما كان من طلعت إلا أن ربت على رأسه وقال بصوت واهن :

ــ أنا كويس يازكريا . . الحمد لله مفيش حاجة .

ونظر زكريا إلى قائده نظرة ملؤها الود والمحبة . . لكنه توجس فى نفسه حين لاحظ أن وجه طلعت ممتقع اللون بصورة شديدة فانتحى بالطبيب جانبا يسأله عن سر هذا الشحوب .

ــ هو كويس ومفيش أى حاجة الحمد لله . . ده بس من الصدمة العصبية وأنا أعطيته حقنه علشان أثار الصدمة . . لكن لازم ينزل المستشفى للاطمئنان .

وحاول طلعت أن يمشى على قدميه حتى يصل إلى عربة الإسعاف لكنه سقط على السرير . . فقام زكريا وبعض الطيارين بحمله إلى عربة الإسعاف وتمدد بداخلها . . واطمأن زكريا على راحته داخل العربة . . وقبل أن يغادرها أشار له طلعت أن يقترب منه ، فمال عليه حتى يسمع صوته الواهن :

ــ انت مكانى يازكريا لغاية ما أرجع . . وتخصم الموتور اللى اتحرق بتاع العربية على الواد السواق .

عندما تنسحب الفهود

التاسعة صباحا والحر تلوح بوادره منذ الصباح الباكر ، رغم أن المكان مزروع بـأشجار المـانجو . . كـانت كتيبة الصـاعقة المتمـركـزة فى تلك الحـديقـة غـرب الاسماعيلية كاحتياطى لقائد الجيش قد انتهى أفرادها من أداء تمرينات اللياقة البدنية وتناولوا إفطارهم ، ثم انقسموا مجموعات متناثرة تحت الأشجار يمضون الوقت فى نقاش دائم ، تارة جاد وكثيرا ضاحك وساخر .

ـ بالذمة يارقيب تهامى ، حسنين ده منظره عسكرى صاعقة . . ده وزنـه خمسين كيلو .

ـ ياعم الظاهر الحرب خلصت على كده .

ـ نفسى أرجع من الحرب الاقى الواد اسماعيل ابنى دخل المدرسة .

ـ بيقولوا الطيران تباعنا شواهم .

ـ شايف الرقيب حسن المصرى ده . . مش طيب وساكت على طول . . كنت تتفرج عليه أيام حرب الاستنزاف ، كان سبع بصحيح .

ـ بقى الكتيبة بتاعتنا دى ما لهاش لازمه لغاية دلوقت . . يبقى الناس اللى قدام تمام قوى .

ـ تصور أبوها طلب مهر ٢٠٠ جنيـه ، قلت لأمى تبيع الجاموسة علشان أجوزها أول ما انزل .

ـ صبرى ده أيام الاستنزاف عض الواد اليهودى قطع له ودنه .

ـ بقى أنت يابتاع الفنون الجميلة دماغك كلها رسم وألوان وتبقى عسكرى صاعقة . . غريبة قوى .

ـ بس ياجماعة هس . . فيه بلاغ فى الراديو . . أسمع أنت وهو . .

وفى خيمة الرائد شريف عبد السلام قائد الكتيبة كان بعض الضباط ملتفين حوله يقطعون الوقت فى مناقشة الوضع القائم تتوسطهم أكواب الشاى .

ـ يعنى كل اللى عملناه أن أحنا فطرنا رمضان .

ـ ياجماعة احنا تحت الطلب . . يعنى ممكن فى ظرف ساعتين نكون بنشتبك مع اليهود .

ـ أنا خايف سيادتك الحرب تخلص واحنا قاعدين احتياطى كده بنتفرج على الحرب .

ـ يعنى حانطلع نحارب من غير أوامر ؟

ـ لا يافندم بس قواتنا ما بتتحركش من يوم ٩ أكتوبر .

ـ سيادة الوزير قال فى البلاغ بتاع امبارح انها وقفة تعبوية .

ـ أيوه يانقيب صبحى بس اللى استفاد من الوقفة دى اليهود مش أحنا .

ـ كان لازم نكمل عليهم بعد العبور على طول .

ـ لا ياطارق أنا مختلف معاك . . الوقفة دى بتخلى دفاعنا ثابت وقوى .

واستمر الحديث بينهم بين مؤيد لوقوف القوات المصرية شرق القناة والتى مضى عليها أربعة أيام وبين معارض لها وأن القوات كان يجب أن تواصل تقدمها بعد العبور ولا تتوقف بعد خمسة عشر كيلو متراً من القناة . . وكان ما يجعل الجميع يشعرون بالضيق والتبرم هو أن الحرب قد مضى عليها حوالى أسبوع كامل وهم لم يشاركوا فيها بعد . وعند الظهيرة والملل قد حل على كثير منهم من طول المناقشات المعادة . . وعلى غير توقع تم استدعاء الرائد شريف إلى قيادة الجيش فى الاسماعيلية ، وكان هذا الاستدعاء يبشر بأن هناك مهمة قد تكلف بها الكتيبة . . وفى ثوان وبدون اتفاق انقلب الجميع إلى حالة من التوتر والقلق ، مترقبين ما سيعود به الرائد شريف من أوامر وما أن دخل شريف مركز القيادة المدفون تحت الأرض ودى التحية حتى قام قائد

الجيش من مكانه على الفور ومعه اثنان من مساعديه واصطحبوه إلى غرفة جانبية جدرانها كلها مغطاة بأنواع كثيرة من الخرائط المرسوم عليها أوضاع القوات المصرية والاسرائيلية . وعلى الفور انطلق قائد الجيش يلقى بالمهمة على شريف الذى وقف متنبها لكل كلمة تقال :

ــ شريف . . سوريا اليهود ضاغطين عليها بقا لهم يومين . . علشان نخفف الضغط ده قررنا نطور الهجوم بكره الساعة سبعة صباحا بالفرقة المدرعة بتاعتنا . . العدو له دبابات متمركزة فى الموقع ده . . مهمتك أنت والناس بتوعك ياشريف تدمير أكبر عدد ممكن من الدبابات دى .

وأكمل أحد مساعدى قائد الجيش بعد أن أشار إلى الخرائط :

ــ الدبابات متمركزة هنا بالضبط . . عددها ١٠٠ ــ ١٢٠ دبابة ، مطلوب تدمير أكبر عدد ممكن وتعطيل التحرك لغاية الساعة ثمانية صباحا على الأقل . . مفيش اتصال لاسلكى اطلاقا قبل الساعة سبعة والا اليهود حايكتشفوك .

ــ شريف العملية دى مهمة جدا . . لو دبابات اليهود اتحركت قبل الساعة ثمانية الفرقة بتاعتنا حاتخسر كثير واحتمال التطوير كله يفشل . . أنا أخترتك انت بالذات لأنى عارفك من أيام حرب الاستنزاف . . على بركة الله .

واستفسر شريف عن بعض التفصيلات من قائد الجيش ومساعديه ثم انطلق وهو يسابق الزمن إلى كتيبته ، تفكيره مشغول بعشرات التفصيلات التى يشعر أنها تحاصره من كل جانب . . وأصبحت الساعات الباقية وكانها سياط تلهب عقله حتى لا يتأخر عن موعد التنفيذ الذى تحدد فى السابعة صباحا . . وظل طوال الطريق يرتب الاجراءات التى سيقوم بها مع السرية التى سيقودها بنفسه ، حتى وصل إلى موقع الكتيبة فوجد الوجوه كلها .

ــ الفرقه المدرعه دى القوه الرئيسية بتاعتنا . . الخوف كله لو اليهود اكتشفونا واحنا نازلين من الطيارات . . لو حطينا رجلنا فى سينا يبقى العملية حاتنفذ انشاء الله . وتسلل إلى نفسه خيط من الخوف والقلق حاول أن يسيطر عليه ويقهره .

ــ المهمة شبه انتحاريه . . لو الفرقه بتاعتنا وقفت لأى سبب يبقى السريه كلها اتزنقت فى وسط اليهود . . قائد الجيش ماقالش أى حاجة عن النجده لنا لو العمليه فشلت . . مفيش غير الطيران بتاعنا هو اللى ينجدنا . . الناس دى شكلها كده مش حاترجع . . هى موته والا اكتر .

وانتبه شريف على صوت النقيب عامر ولم يكن قد شعر بقدومه :

ــ ايه يارائد شريف . . سيادتك سارح بعيد قوى .

ــ أهلا ياعامر . . لا أبدا . . اتفضل اقعد . . الناس أخبارها ايه ؟

ــ الناس جاهزة على الآخر يافندم . . والمعنويات عاليه قوى .

ــ طيب ياللا بينا . . توكلنا على الله .

وأنطلقت بهم العربات متجهه إلى مطار الاسماعيلية حيث سيتم اللقاء مع الطائرات التى ستنقلهم إلى موقع تنفيذ المهمة . كانت المدينة غارقة فى ظلام مشرب باشعة القمر الفضية وسكون غريب موحش تقطعه أصوات انفجارات مكتومة على بعد كبير . . ونظر إلى حدائق الاسماعيلية بشجن ووجد حرك فى نفسه ذكريات رومانسية عن حب عابر قصير حين كان فى بداية عمله منذ عشر سنوات . . وانتبه لنفسه وهو فى دهشة من هذه الذكريات التى تهاجمه وهو فى هذا الموقف .

وفى الموعد المحدد تماما كانت الطائرات تقلع بهم متجهة إلى عمق سيناء تحت ستر الظلام والكل فى حالة ترقب وصمت . . وفجأة انفجر داخل كل الطائرات وكأنهم على اتفاق فى أقصى حالات الترقب والانتظار . . وعلى الفور اجتمع بضباط الكتيبة شارحا لهم المهمة :

ــ اللى حاينفذ العملية السرية ٤٣ بقيادتى ومعايا النقيب عامر وقادة الفصايل . . مجموعة الدعم بقيادة النقيب صبحى .

واستمر يشرح للضباط المشاركين معه تعليماته بأدق التفاصيل حتى اختتم كلامه بحزم واضح :

ــ العملية لا تحتمل أى أخطاء . . عايز كل الناس اللى طالعه معانا تكون عارفه وحافظه كل كلمة قلتها دلوقت . . كل واحد لازم يبقى عارف حايعمل ايه بالضبط . . اتفضلوا .

وانقلب موقع الكتيبة الى خلية نحل لكن دون فوضى فالكل يعرف ما يقوم به . . وتنقل شريف فى مواقع الكتيبة حتى يتأكد بنفسه من التجهيز للمهمة .

ــ يعنى مش حانبلغ يافندم ان احنا وصلنا منطقة الهدف ؟

ــ ولا كلمة فى اللاسلكى والا اليهود حايلقطونا ويعرفوا مكاننا وتبوظ العملية .

ــ حايبقى عندنا وقت نستطلع مكان الدبابات ؟

ــ الطيارات حاتنزلنا على بعد ١٢ كيلو متر من الهدف ، حانقطع المسافة دى فى حوالى ٥ ساعات يبقى لسه فاضل ساعتين قبل الهجوم تعمل فيهم استطلاع زى ما أنت عايز .

ــ يارقيب حسن الواد حسنين ده شوية الهوا اللى عند الطياره الهليكوبتر حايبعزقوه ، ده وزنه خمسين كيلو .

ــ بالاش تهريج ياطلبه . . شوف حاجاتك وتمم عليها .

ولما أيقن شريف أن كل ما طلبه من ضباطه قد نفذ ، عاد إلى خيمته وجلس أمامها وكانت الشمس قد مالت على الأفق وشارفت على الغروب . . وأخذت كلمات قائد الجيش تطفو فوق بحر أفكاره المتلاطم . . واستشعر فى نفسه عظم وخطورة المهمة المكلف بها . صوت الأناشيد الوطنية والأغانى الحماسية فى محاولة لطرد أى خوف قد يتسلل إلى النفوس . . إلا الرائد شريف الذى كان يحاول أن يبدو هادئا وهو مشغول بعشرات الأشياء فى داخله . . كان يضع احتمالات توقع العدو فى كل خطوة ويحاور نفسه عن كيفية رد فعله فى كل خطوة . . حتى انتبه فجأة على توقف الجنود عن الغناء فقط هبطت الطائرات فى المنطقة المحددة . . واشتعلت أعصاب الجميع وتوهجت كل الحواس وهبطوا فى صمت تام وغادرتهم الطائرات الهليكوبتر عائدة وكأنها الحبل السرى ينقطع . .

وفى سواد الليل المشرب بأشعة القمر تجمعوا فى مجموعات خمس وتحركوا سريعا إلى هدفهم بعد أن أشار لهم الرائد شريف إلى اتجاه التحرك ومكان كل منهم أثناء التحرك .

ـــ هم ياعبد الحكيم . . اللى حا يتأخر مالوش ديه يابوى .

ـــ معقول اليهود مش حاسين بكل اللى بيحصـل ده ؟ متهيأ لى عـاملين فخ وسايبنا لغاية ما نقع فيه برجلينا .

ـــ طيب احنا مين حايحمينا بعد ما نضرب اليهود .

ـــ ده قائد الجيش هو اللى طالب المهمه دى بنفسه يبقى لازم عامل حساب كل حاجة .

ـــ بلاش كلام وانت بتجرى ياصبرى .

ـــ أرجع يارقيب حسن وقول للنقيب صبحى يخليه على اليمين هو ومجموعته .

ـــ السعدنى شايل حاجات كتير يافندم نقف شويه علشان نخفف عنه .

ـــ اجرى ياطلبه . . لما نقف علشان الراحة ابقى اعمل اللى انت عايزه .

ـــ ماشيين صح ياعامر ؟

ـــ أيوه يافندم . . الطريق على شمالنا اهه . . فـاضل ٢ كيلو عـلى منطقـة الانتظار . . الوقت معانا لأن فاضل على الفجر ساعتين .

ووصلت المجموعات الخمس إلى منطقة الانتظار والجميع يتصبب عرقاً لاهثين من التعب وكأنهم خيول بعد نهاية السباق . . وبعد فتـرة قصيرة اجتمـع شريف بضباطه الخمس المشاركين معه فى المهمة حتى يؤكد لهم الأوامر على أرض المعركة :

ـــ النور اللى على اليمين ده تجمع الدبابات . . عامر انت حـاتقفل الـطريق بالناس اللى معاك . . وأنا حاخد بقية الناس من قدام الجبل ده وحانهاجم . . أوعى ديـابة تفلت منـك ياعـامر قبـل ما خلص الهجـوم ، والا أنا والنـاس اللى معـايا حانضيع . .

ـــ ما تخافش يافندم . . مفيش ولا دبابة حاتعدى انشاء الله . . سيادتك خد راحتك .

ـــ طبعا مفيش أى كلام باللاسلكى الا بعد الاشتباك .

ـــ جاهز سيادتك واطمئن يافندم .

ـــ نقرأ الفاتحة كلنا ونتوكل على الله . . ونتقابل مع المدرعات بتاعتنا على الظهر انشاء الله .

وانصرف الجميع صامتين وكان الظلام ساترا لكل شيء حولهم حتى وجوههم التي كانت مليئة بعلامات التوتر والقلق والخوف . . وانطلق شريف ومعه مجموعة الهجوم نحو الجبل وتبعه عامر وصبحي إلى أماكنها المتفق عليها .

واتخذ الجميع أماكنهم ، والدقائق تمر عليهم وكأنها ساعات وأيام ، والكل يحبس أنفاسه ترقبا لتوقيت الهجوم . . وانسحبت ظلمة الليل وبدأت بشائر ضوء الصباح تظهر حثيثا . . وبدأ الرائد شريف ينظر من خلال نظارته المكبرة كي يحدد أماكن الهجوم . . وكاد قلبه يتوقف من هول المفاجأة . . كانت الدبابات أمامه أكثر من ثلاثمائة دبابة وليست مائة كما قال له قائد الجيش . . وارتج داخله بعنف شديد وشعر بجفاف فى حلقه . . وحاول أن يتماسك سريعا فقد كان الرقيب تهامى منبطحا بجانبه وكتفه ملاصقا له . . وزحف متقهقرا إلى الخلف حتى توارى قليلا ، وبدأ يلتقط أنفاسه بعمق واضح حتى يهدأ من اضطرابه .

ـ ثلاثمائة دبابة . . أمال مين اللى قال انهم مائة دبابة وبس . . مصيبة سوده . . الفرقة المدرعة بتاعتنا كده حاتضيع مهما عملنا أنا والناس اللى معايا مش حاندمر أكتر من أربعين دبابه أو خمسين حتى . . مصيبة سوده . . الفرقة بتاعتنا حاتدمر . فاضل على ميعاد الهجوم ساعة . . لازم قائد الجيش ياخد خبر بعدد الدبابات اللى موجود علشان يتصرف . . لازم أبلغ قيادة الجيش .

وشعر شريف أنه يسقط فى هوة سحيقة بلا قرار . ـ فأى اتصال الآن سيكشف موقعهم للقوات الإسرائيلية ، وفى دقائق سيتم حصارهم ومهاجمتهم بدبابات العدو التى تبعد عنهم أمتاراً فقط سيحكم على أفراد السرية بالموت . . حجر ثقيل يجثم على نفسه . . تفكيره تمزق وانشق نصفين . . شبح الموت يتراقص أمامه فالمحصول وفير . . . وفى لحظة خاطفة لا يعرفه كيف أتت ، وجد الهدوء يغمر نفسه والثقة تلملم أشلاء فكره المتنافر . . سيبلغ قيادة الجيش بالموقف الجديد ويقوم بالهجوم على معسكر الدبابات . . وقام إلى أفراد مجموعته وأخبرهم أن الهجوم سيبدأ الآن وأخذ كل منهم يستعد لدوره فى الهجوم . . وطلب جهاز اللاسلكى من تهامى وأمسك بميكروفون الإرسال وارتدى سماعات الارسال على أذنيه .

ـ من قائد ابيض ٢٢ إلى جبل . . من قائد أبيض ٢٢ إلى جبل . . يتم إلغاء

الهجوم . . الموقف لا يسمح بالهجوم . . العدو مسيطر تماما . . يتم الغاء الهجوم .

وشعر بأن حملا ثقيلا قد انزاح من فوق صدره بعد أن تلقى رد قيادة الجيش . ثم أعطى أشارة لعامر وصبحى بأن الهجوم سيبدأ الآن وفى دقائق كان شريف ومعه مجموعة الهجوم على بعد أمتار من معكسر الدبابات الإسرائيلية وعلى الفور أطلقت مجموعة القوذاف صواريخها على الدبابات الرابضة كحيوانات من العصر الحجرى وفى ثوان تحولت الدبابات الى كتل من النيران المشتعلة وتحول المعسكر كله إلى كتلة من الذعر المتحرك انهمرت طلقات الرشاشات والبنادق الآلية تحصد فى الجنود الذين اخذوا على غرة .

ــ ستاشر دبابه يافندم .

ــ هات ولاد الكلب اللى بيجروا ناحية البرج دول .

ــ سلم يمينك ياواد يابتاع الفنون .

ــ عشرين دبابه ياجدعان . . ولسه .

ــ آدى اليهود بتوع ٥ /يونيو إلى كانوا طالعين بيهم السما ؟

ــ وأفاق المعسكر الإسرائيلى من لطمة المفاجأة وبدأ يرد على نيرانهم بالمثل وما هى إلا دقائق حتى بدأت أصوات جنازير الدبابات المنطلقة من المعكسر لمطاردتهم .

ــ كل الناس تنسحب ناحية الجبل . . السعدنى ومحمود وتهامى معايا علشان نغطى الانسحاب .

كانت أوامر الرائد شريف سريعة وقاطعة ، وأبلغ عامر وصبحى باللاسلكى بأن مجموعته ستنسحب وأن عليهم تعطيل الدبابات لأطول فترة ممكنة .

ــ لازم حايحصلونا ياصبرى .

ــ اجرى ياعبد الحكيم حلكم يارجاله .

ــ رايحين جرى وراجعين جرى احنا بنجرى من أمبارح بالليل .

ــ لازم نوصل الجبل قبل ما يلحقونا .

كان الجبل على بعد كيلو مترات ، وكان تخطيط شريف أنه يمكن أن يحتمى فيه ورجاله من دبابات العدو حتى يحل الظلام فيستطيع إكمال الانسحاب .

ــ شفت الواد حسنين بيجرى زى الصاروخ الوزن الخفيف بينفع فى الأجوال دى .

ـ ايه يا طلبه حتى دلوقت حاتهرج .

ـ لو وصلنا الجبل نحمى نفسنا فعلا . . الرائد شريف ده مخ كبير قوى .

فصرخ فيهم الرقيب حسن المصرى بصوت شق الفضاء .

ـ الصاعقه حديد يا مصر الله اكبر

ورددوا كلماته بحماس سرى فى أوصالهم وكأنهم تعاطوا جرعة منشطة جعلتهم جميعا يزيدون من سرعتهم حتى اصبح الجبل على بعد كيلو متر واحد فقط لكن دبابات العدو كانت قد لحقت بهم وبدأت تطلق عليهم نيرانها .

ـ صبحى ومعاك السعدنى انزلوا فى الحفره دى وانا وراك على طول . عطل أول دبابه بأى طريقه .

ـ ايه صبرى شد حيلك شويه واجرى معانا .

ـ مش قادر يا رقيب تهامى ، رجلى انجزعت ..

ـ حاسس ان قلبى حايقف .

وصرخ شريف فى صبحى وكان على بعد خمسين مترا

ـ ايه يا صبحى . . دلوقت !

وفى نفس اللحظه التى صرخ فيها شريف كان صبحى يلقى قنبلة على أول دبابة وكانت على بعد عشرين متراً منه فأصابتها فى مقتل مما عطل طريق المطاردة لباقى الدبابات خلفها لعدة دقائق كانت كافية لان يقتربوا من الجبل حتى أصبح على بعد أمتار منهم . . لكن الدبابات أخذت تلاحقهم بخراطيم من نيران تنطلق من فوهات المدافع .

ـ عامر . . اوقف الناس بتوعك واشتبك من اليمين ، انا وصبحى حانشتبك من الشمال . واخذوا أماكنهم التى اشار إليها الرائد شريف واستمروا فى تبادل النيران مع الدبابات الإسرائيليه وكان الاشتباك غير متكافىء فلا يمكن لإنسان من لحم أن يواجه قلعه من الحديد والصلب ولكنها كانت محاولة من شريف حتى ينقذ

أكبر عدد من أفراده يمكن أن يصلوا إلى الجبل . . ونجحت المحاوله بفضل عبد العزيز الذى تسلق أول دبابة وألقى بقنبلة يدوية فى داخلها ، لكن جسده النحيل تلقى أكثر من ثلاثين طلقة من الدبابات الأخرى ونجحت محاولة عبد العزيز الانتحاريه فى أن توقف تقدم الدبابات لفترة كانت كافية لأن يلحق شريف ومجموعته التى كانت تغطى الانسحاب بزملائهم فوق الجبل .

ـ عبد العزيز كان انسان عادى جدا . . محدش كان يتخيل انه يعمل كده .

ـ الانسان العادى ده طلع انه اعظم واحد فينا كلنا .

ـ سمعت كتير عن اعمال بطوليه لكن اول مره اشوف البطوله بعينى . . الله يرحمه .

ـ حمد الله على السلامه يا فندم .

ـ الحمد الله . لكن لسه بدرى على الكلمه دى . . قدمنا النهار بحاله وبعدين ٤ كيلو لغايه قواتنا .

ـ انشاء الله حانرجع يا فندم .

ـ احنا لغايه دلوقتى عندنا ٣ شهداء و ٤ متعورين بس .

ـ الناس تاكل لقمه . . ووزع الناس يا عامر على مواقعها بعد ما ياخدوا راحه ربع ساعه .

ـ حاضر يا فندم .

وارتمى الجميع على ظهورهم بغية تجديد قواهم استعدادا لما هو قادم . . ساعدهم أن الجو كان مشبعا بنسمة رطبة والنهار مازال فى أوله .

ـ معقول الجيش حايسينا كده ؟

ـ يا بنى الرائد شريف اتصل قدامى وقال لهم الموقف بالتفصيل .

يابن ادم دول رتب كبيره يعنى اكيد عاملين حساب كل حاجه .

ـ لم تمض عليهم إلا ساعة حتى عاود العدو هجومه عليهم بنيران مدفعيه هذه المرة ، فلم يكن أمامهم سوى الاحتماء فى الأرض كانوا جميعا منبطحين ملتصقين بالأرض وكانها صدر الأم الحنون . . وكان شريف هو الوحيد الذى يعرف أنه لا مساندة من القيادة لهم ، فهم محاصرين بقوات اسرائيلية من كل الجهات . .

وسكتت المدفعية الاسرائيلية وتقدم نحوهم جنود مشاة ، لكن موقعهم العالى فوق الجبل كان يعطيهم ميزة عليهم وانفجرت طاقاتهم المخزونة ، وزادهم عنفا إحساسهم بأنهم محاصرون وأن لا مفر أمامهم إلا تكبيد العدو أكبر خسائر .

ـ شايف اللى داخلين علينا من اليمين دول ؟

ـ اثبت لغاية ما يقربوا خالص محدش يفتح نار غير لما اقول .

ـ يا حبيبى . . ثلاثه منهم اتكوموا مره واحده .

ـ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى .

واستمر تبادل إطلاق النار مدة طويلة فشل خلالها العدو فى تحقيق أى مكسب عليهم بل إنه خسر أعداد كبيرة من القتلى ، فلم يكن أمامه إلا الإنسحاب من أمامهم استعدادا لمعاودة الهجوم عليهم مرة أخرى ومضى باقى النهار والعدو يحوم حولهم عن بعد وهم يراقبون تحركاته ، وكانوا فى دهشه من ان الشمس قاربت على المغيب والعدو لم يعاود الهجوم منذ الظهيرة .

ـ لو دخل علينا الليل ، حانرجع بأذن الله .

ـ غريبه انهم من الظهر لغايه دلوقت مفيش أى هجوم .

ـ أصل احنا علشان فوق الجبل وضعنا احسن منهم .

ـ خسايرهم كبيره يا فندم انا لوحدى شفت عشرين قتيل .

ـ الحق يا فندم . . كل الناس تستعد .

صرخ النقيب عامر مستنجدا بالرائد شريف ، كانت على البعد طائرة هليكوبتر قادمة نحوهم . . وعلى الفور هب الجميع يحتمون بثنايا الأرض . . وفى ثوان كان الجبل يشتعل بالنيران فقد ألقت عليهم الطائرة قنابل نابالم ، ثم دارت حولهم وهم فى موقف العاجز حيث لا يملكون أى سلاح مضاد للطائرات ، وعادت الطائرة تقصفهم بالنابالم وهم فى حيرة بالغة . . فالطائرة ستواصل هجومها حتى تنهى عليهم

ـ عامر . . خد الناس . . وانزل من الجبل . . فى اتجاه قواتنا . . لو فضلنا هنا . . الطياره حاتخلص على الناس كلها

كانت أوامر شريف تخرج واهنة متقطعة بعد ان اصيب بحروق شديدة من

النابالم . . وكان هذا هو المخرج الوحيد الباقى امامهم ، فهناك فرصة ولو ضئيلة فى النجاة افضل من ثباتهم فى هذا المكان .

ـ اعمل نقاله بسرعه ياتهامى علشان نحط عليها الرائد شريف .

ـ سبحان من له الدوام يا نقيب عامر . . الرائد شريف قابل ربه . . خلاص .

ـ فى الجنه ونعيمها انشاء الله . . كلهم

وسقطت دمعة من عين عامر ، لكن سرعان ما تماسك حتى يستطيع انقاذ المجموعة الباقية . . كان الحزن ترفا لا يتوفر فى مثل تلك اللحظات . . وعلى الفور انطلق الجميع بأقصى سرعة يحاولون هبوط الجبل فى اتجاه الغرب نحو القوات المصرية ، والطائرة مازالت تحوم فوقهم . . وفطن الطيار الاسرائيلى لما يسعون إليه ، فعاود الهجوم عليهم لكن بنيران مدفع الطائرة .

ـ اجرى يا عبد الحكيم ، ولما يدخل علينا ارقد على الارض طوالى .

ـ فين طيارتنا تيجى تضربه ابن الكلب ده .

ـ يارب فاضل على الليل نص ساعه .

ولما أيقن الطيار الاسرائيلى انه أحدث فيهم خسائر فادحة مر فوق رؤوسهم منخفضا جدا ثم عاد أدراجه . . وكانت هذه هى الحقيقة فقد استشهد جميع ضباط السرية ومعظم افرادها . . وبقى عدد بسيط بقيادة الرقيب حسن المصرى تمكنوا من العودة متسللين ليلا حتى وصلوا إلى وحدة مصرية « متمركزة » فى شرق القناه .

وما أن علم قائد الجيش بوصولهم حتى أمر باحضارهم لمقابلتهم وعلى الفـ[illegible] ورغم الارهاق الشديد استقلوا عربة إلى الاسماعيلية تنفيذاً لاوامر قائد الجيش كان الرقيب حسن المصرى يركب بجوار السائق فى الكابينة وباقى القوه فى الصندوق الخلفى . .

ـ حا اقول له على عبد العزيز واللى عمله . . الواد نط فوق الدبابه وحط القـ[illegible] فى ثانيه . . وحا اقول على الرائد شريف . . كان بيعمل كل حاجه مضبوط بس [illegible] عاجز قدام الطيران . . لازم اسأله فين الطيران بتاعنا ، لو كان ظهر حتى [illegible] ماكنش حصل اللى حصل . . احنا مات مننا كتير بس خسرنا اليهود اكتر .

وما هى الا ساعة حتى كان الرقيب حسن المصرى ومن بقى معه امام قيادة الجيش ورغم الارهاق والتعب حاول حسن المصرى أن يكون فى وقفته امام قائد الجيش مشدودا منتصبا .

ـ تمام يا فندم القوه ٩٨ استشهد ٦ ضابط ، ٦٩ فرد . . العائدون ٢٣ فرد ، ٥ جرحى والباقى جاهز لأى اوامر يافندم .

وشد قائد الجيش على يد حسن المصرى وظل محتفظا بكفه وهو يحدثه :

ـ حمد الله على السلامه . . انتم عملتوا حاجه كويسه قوى . . خد الناس بتوعك وارجع للكتيبه علشان ترتاحوا .

وركب قائد الجيش عربته وقال لمساعده الذى كان بجواره وهو يشعل سيجارته .

ـ غيرنا الخطه بالكامل بسبب البلاغ بتاع شريف . . والأولاد دول أبطال والله .

قصر فى الجنة

دبت الحياة فى الميدان الكبير الذى يطل عليه من شرفة منزله بمصر الجديدة . . كان الجو صحوًا رغم انه منتصف شهر ديسمبر وقد جلس يتصفح إحدى المجلات الأجنبية التى تمتلىء بالشرح والتحليل عما دار فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى انتهت منذ أقل من شهرين . . كان مشدوداً بكل تفكيره إلى آراء الخبراء العسكريين الاجانب وخاصة اراء الإسرائليين الذين اشادوا بما فعلته القوات المسلحة المصريه اثناء الحرب . . لكنه خرج من استغراقه على رنين التليفون .

ـ ألو . . منزل العقيد عادل الشهاوى .

ـ نعم . . أنا هو ياسيدتى .

وكأنها وجدت ضالتها أخيرا فاندفعت فى الحديث دون توقف :

ـ آسفه يا سيدى انت لا تعرفنى . . انا والدة الملازم طيار عبد القوى شمس الدين . . أريد ان اراك لحاجة ضرورية . . هل يمكن ان ازورك بمنزلك أم ان هذا شيء يزعجك ؟

وتمالك نفسه سريعا من المفاجأة فهى والدة أحد الطيارين الذين استشهدوا فى الحرب تحت قيادته .

ـ تشرفت بمعرفتك يا سيدتى . . وأهلا بك فى أى وقت . . لكن الواجب أن أحضر أنا اليك .

ـ اذن ليكن لقاؤنا فى السابعة مساء اليوم بمنزلى .

كانت كلماتها منفعلة ومتوترة فلم يحاول أن يراجعها بل صدق على كلماتها بعد أن أخذ منها عنوان المنزل مؤكداً انه سيحضر فى الموعد المحدد .

ألقى بالمجلة جانبا واشعل سيجاره وضاقت عيناه قليلا وهو يحاول ان يسترجع كلمات هذه السيدة التى لم يعرفها من قبل ، ثم قادته افكاره إلى ابنها الذى استشهد فى حرب اكتوبر منذ شهرين . . لقد كان معه فى نفس الطلعة التى كانوا يهاجمون فيها موقعاً اسرائيلياً ، وبعد الانتهاء من الهجوم طاردتهم المقاتلات الاسرائيليه . . كانوا أكثر منهم عدداً ولهذا استطاعوا أن يدمروا طائرة عبد القوى . لقد شاهد طائرته وهى مشتعلة ثم وهى تنفجر فى الجو . . لقد صرخ فيه باللاسلكى ان يقفز من الطائرة ، لكن اصابته كانت قاتلة فلم . يجد صراخه . . ودخلت عليه زوجته وهى تحمل صينية الشاى متساءلة . فحكى لها مادار بينه وبين تلك السيدة .

- ربما كانت فى حاجة اليك ، خاصة فى اجراءات المعاش .

- لا اعتقد ذلك فهو من عائلة بالغة الثراء . . لقد كانت هدية تخرجه من الكلية عربة امريكية من أحدث طراز . . أعتقد أنها تريدنى فى شىء آخر

وفى الموعد المحدد كان يستقل عربته متوجها إلى فيلا العائلة الواقعة على النيل بالجيزة . . ومازال يتساءل فى نفسه عن سر هذا اللقاء . . لقد مر بهذا الموقف كثيرا ويعرف انه لقاء ثقيل على نفسه ويصيبه بحزن كبير رغم مشاعره التى تبدو باردة أمام الآخرين . . وفى العنوان المحدد لم يجد فيلا كما توقع وانما قصراً محاطاً بحديقة مترامية .

رافقه حارس البوابة عبر الحديقة الكبيرة حتى الباب الداخلى ثم رافقه خادم آخر حتى الصالون الذى استقر فيه مبهوراً من الثراء الذى ينم عنه اثاث القصر البالغ الفخامة . . وبعد فترة جاءه خادم ثالث يتلقى أوامره فوجد أن القهوة مناسبة فى مثل تلك الظروف ، وأخذ يتجول بعينيه فى التحف الموجودة فى أركان البهو الجالس فيه ثم فى السلم الخشبى الذى يؤدى إلى الدور العلوى . . كان السلم تحفة فنية من الخشب والنحاس المشغول .

وجاء الخادم بالقهوة ، وفى نفس الوقت سمع خطوات السيدة التى جاء لزيارتها وهى تهبط درجات السلم . . وكانت لديه مسافة كافية كى يتأملها وهى قادمة إليه . . كانت فى الأربعين من عمرها لكن جمالها مازال نضراً ، تمشى فى ثقة وثبات . . واستلفت نظره أنها محجبة وكان الحجاب شيئا غريبا فى هذا الوقت خاصة

لمن كان فى عمرها
ـ خالص عزائى يا سيدتى
ـ شكراً . . لكن الأحياء لا يقبل فيهم عزاء
وأفحمته كلماتها الواثقة فجلس وهو لايدرى ماذا يقول إلى أن بادرته بالكلام
ـ كان عبد القوى ابنى طياراً تحت قيادتك . . هل كنت تعرفه جيداً ؟
ـ نعم يا سيدتى ، أعرفه جيداً
ـ هل كنت تعرف أنه وحيدى ؟ . . لقد توفى والده وهو فى العاشرة ومن يومها ونحن متلاصقان لم يكن أحدنا يخفى عن الآخر شيئاً فى حياته
ـ لم أكن أعلم تفاصيل حياته العائلية . . ومعرفتى به كانت من خلال العمل
ـ اذن فيما كان الخلاف بينك وبينه ؟
ـ بالعكس كان عبد القوى قريبا إلى نفسى مثل كثير من الطيارين الذين تحت قيادتى فناولته ورقة مطوية وهو فى دهشة كبيرة من الموقف كله
ـ اذن أرجو أن تقرأ هذا
وكانت الورقة خطاباً من عبد القوى إلى والدته أرسله لها بعد اسبوع من بداية الحرب .

أمى الحبيبه

سلام الله عليك ورحمته وبركاته . . انا وزملائى جميعا بخير يا أمى . . الحرب نحن منتصرون فيها باذن الله . . دعواتك يا أمى ان تكون مصر دائما منتصرة . . أنا أبذل قصارى جهدى كما تعودتى منى طوال حياتى . . لكن العقيد عادل اصدر اوامره لى بألا أشارك فى أية طلعات لمهاجمة اليهود ، ومضى على هذا الأمر يومان ولا أدرى لماذا يحرمنى من المشاركة فى الحرب ؟ وما هى اسباب هذا القرار ؟ . . ورغم أنه قائد متزن وأشعر نحوه بحب واحترام لكن هذا الأمر ضايقنى كثيراً . . أرجو أن تكونى راضية عنى وهذا ما يهمنى كثيرا . . أعاهدك بأن نكون من المنتصرين باذن الله . وإلى أن نلتقى أستودعك الله

ولدك

عبد القوى شمس الدين

وانتهى عادل من قراءة الخطاب ورفع رأسه ببطء والصمت يلف المكان كله إلا من صوت بعض قطرات المطر ترتطم بزجاج الصالون . . كان يشعر أنه فى حلم غريب وأنه عاجز عن الكلام . . لكنها لم تتركه لنفسه بل عاجلته كلماتها

ـ لقد طلبت زيارتك لكى تفسر لى أمرين أولهما هذا الخطاب .

وأخذ يسترجع زمام نفسه حتى يواجه تلك السيدة وهدوءها المثير .

ـ سيدتى . . إن ابنك قد تخرج من الكلية الجوية منذ عام وكان فى التاسعة عشر من عمره والتحق فور تخرجه باللواء الجوى الذى أتولى قيادته ضمن ثمانية من دفعته ، وكنت أتولى تدريبهم على القتال بنفسى ، ولهذا كنت أعاشرهم فترة طويلة وتولدت بينى وبينهم رابطة خاصة . . كنت اشعر بأنهم اخوة صغار لى وليسوا ضباطاً تحت قيادتى .

ـ إذن لماذا حرمته من الاشتراك فى الحرب بعد اليوم الخامس ؟

وشعر بأن ثقته بنفسه قد عادت إليه تماما وأنه أصبح المسيطر على الحديث : لم يكن الأمر شخصياً يا سيدتى ، أو لأن عبد القوى لا سمح الله مقصر أو ضعيف عن زملائه .

ـ إذن ما هو السبب .

ـ السبب يا سيدتى أن أوامرى منذ بداية الحرب كانت أن يتساوى جميع الطيارين فى عدد الطلعات ، فليس هناك إنسان أجدر من الآخر بالحياه أو أجدر منه بشرف الشهادة . وفى اليوم الخامس فوجئت بأن عبد القوى يسبق أقرانه فى عدد الطلعات بمقدار الضعف تقريبا ، ولهذا بعد ثلاثه أيام أمرته بالطيران معى فى نفس التشكيل وقد استشهد فى هذه الطلعة .

وهدأت نفسه تماما وأشعل سيجارة .

ـ أعتقد الآن أنك مطمئنة إلى أن إيقافى لعبد القوى لم يكن عن غضب منه أو عقاب له . . بل بالعكس تماما . . لكن أمر الله الذى لا رد لقضائه . . .

وقاطعته بكلماتها الهادئة الشديدة الثقة .

ـ هذا هو الأمر الأول يا عقيد عادل أما الثانى فهو هل عبد القوى استشهد وهو مقبل أم مدبر .

ولم يفهم معنى سؤالها .

ـ افندم .

ـ هل عبد القوى استشهد وهو مقبل أم وهو مدبر ؟

وأدرك معنى سؤالها وانتابته مشاعر متضاربة من الانبهار بهذه السيدة والدهشة والغرابة من مشاعرها .

ـ سيدتى إن ابنك شهيد حق . . لقد استشهد عبد القوى وهو يقاتل قتال الأبطال . . لقد استشهد فى سبيل الله حقا . . أقسم لك أنى شاهدته بعينى وهو يدمر موقع اليهود ثم اشتبك مع طائرتين اسرائيليتين ولولا هذا لما تمكنا منه . . أقسم لك يا سيدتى أنه فى الجنة مع رفقائنا الذين سبقونا .

ورانت لحظة صمت طويلة ولم يدر ماذا يقول بعد هذا ، إلا أنه صوب نظرة نحوها ينتظر ماذا تقول . فوجد أن وجهها قد تألق بفرحة غريبة وأشرقت عيناها وهى تقوم إلى علبة من الفضة كانت على المائدة تفتحها .

ـ أشكرك يا سيادة العقيد . . لقد أسعدتنى كلماتك أيما سعادة . . ومن الواجب الآن أن نتناول بعض الحلوى .

فتناول قطعة من الحلوى وهو فى دهشة من هذه السيدة التى أثارت فى نفسه مشاعر متضاربة شتى . . وكان لابد وأن ينهى الزيارة بعد أن جثمت أحزان كبيرة على صدره . . وخرج من القصر الفاخر وقد خفت حدة الأمطار إلا من رذاذ خفيف .

وانطلق بسيارته عائدا وقد توقف تفكيره عند هذه السيدة وما أثارته فى نفسه من أحاسيس . . ولاحظ أن المطر المتساقط على زجاج السيارة يعوق الرؤية أمامه فقام بتشغيل مساحات الزجاج الأمامية . . لكن لم يجد لها أى تأثير على الرؤية . . فقد كانت عيناه مغرورقتين بالدموع .

فارس هزم الموت

كان المساء ربيعياً لطيفا فهو يوم من أيام شهر إبريل ، وقد هبط توفيق وحيدر من عربتهما الصغيرة فى حديقة نادى الضباط . . لم يكونا شقيقين فقط وإنما كانا متلاصقين بشدة فالفاصل فى العمر بينهما عام واحد وطوال الدراسة كانا سويا حتى التحقا بالكلية الجوية وتخرجا كطيارين فى القوات الجوية فى دفعتين متتاليتين ، وإن فرق بينهما مكان العمل فكان توفيق الشقيق الأكبر يعمل فى أسراب المقاتلات فى قاعدة أبو صوير أما حيدر الشقيق الأصغر فكان مدرسا بالكلية الجوية فى بلبيس . . كان الشقيقان على موعد مع محمد الذى كانت تربطه بهما علاقة حميمة خاصة فهو من ناحية دفعة توفيق الشقيق الأكبر وفى نفس الوقت يعمل مدرسا بالكلية مع حيدر الشقيق الاصغر .

* أهلا أبو حميد .

* وتعانق محمد وتوفيق بشوق واضح ، ورد محمد التحية مداعبا :

* أهلا بالأخوة كارمازوف .

وانعزل ثلاثتهم فى أحد أركان النادى يتبادلون الذكريات التى يتخللها التعليقات الساخرة . ثم انحرف بهم تيار الحديث إلى موضوع الطيران الذى لا ينتهى فيه الحديث طالما اجتمعوا سويا .

* شهر ياعم توفيق من آخر مرة اتقابلنا فيها .

* يا أبو حميد هو إحنا زيكم ، كل يوم فى مصر وأجازة خميس وجمعة . . العملية عندنا مزنقة قوى ، طوارىء وطيران ليلى كل أسبوع ونهارى ، ده غير

الاستعراضات . . من الأسبوع الجاى حنبتدى بروفات ٢٣ يوليو أنتم أصلكم فى دلع ومش مقدرين .

* يا عم اسكت . . اللى مايعرفش يقول عدس . . ده ألعن حاجة فى الدنيا إنك تكون مدرس فى الكلية ، غارف زى اللى مربوط فى ساقية ، كل يوم خمس طلعات وزى الريكوردر ، اللى تقوله تعيده كل يوم . . ماتقول لاخوك يا سى حيدر احنا شكلنا إيه فى الكلية .

* انت عارف يا توفيق إن أنا ومحمد قدمنا طلب نقل من الكلية علشان نرجع المقاتلات .

* اسمعوا كلامى والله . . المقاتلات شغلها آخر قرف ، والكلية أريح ميت مرة .

* طيب تيجى الكلية معانا .

وبدون تفكير رد توفيق على الفور :

* لا طبعا . . نوعية الطيران مختلفة . . ولا أقدرش دلوقت أسيب الميج ٢١ .

وقاطع حيدر شقيقه :

* احنا حانسهر هنا الليلة كلها والا إيه ؟ يا للا بينا على الأوبرج ، عازمكم الليلة على حسابى .

* انا ومحمد كنا عايزين نشوف المسرحية اللى فى المسرح القومى .

* يا عم مسرحية إيه ، هو احنا ناقصين غم . . ده فيه باليه أسبانى فى الأوبرج يجنن . . ونزولا على رغبة حيدر وأمام إصراره قضوا السهرة فى الأوبرج استمتاعا بالصحبة ، وتفرقوا عند الفجر على أمل اللقاء فى أجازة توفيق المقبلة .

ولم يمض على تلك الليلة سوى أسبوعين فقط ، إلا واندفعت الأحداث فى تيار هادر أخذ الجميع على غرة ، بداية من إعلان الطوارىء فى مايو ٦٧ . . حيث تلاحقت الاحداث بعدها وصدرت مئات التعليمات والأوامر فألقت بحيدر فى أحد أسراب المقاتلات فى سيناء أما محمد فبعد جولة سريعة فى ثلاثة مطارات مختلفة استقر به الأمر فى السرب المتمركز فى اليمن ، بينما ظل توفيق فى قاعدة أبوصوير كما هو .

وجاء الخامس من يونيو بضربة إسرائيل الجوية المباغتة التى هزت كيان الملايين ،

إلا نفر قليل كان منهم توفيق . . فما أن انتهت الهجمة الإسرائيلية الأولى على مطار أبوصوير حتى انطلق توفيق بطائرته وأقلع من على الممر الفرعى الذى كان قد دمر جزء منه . . كان يدرك أن الموجة الإسرائيلية الثانية ستصل فى خلال دقائق ويستطيع هو ومن نجح فى الإقلاع منعها من استكمال تدمير المطار وباقى الطائرات ، وتمكن فعلا توفيق هو وبعض زملائه إفساد الهجمة الإسرائيلية الثانية ، لكن تكاثر الهجمات الإسرائيلية أغلق مطار أبوصوير فى الثانية ظهراً لكن فى اليوم التالى مباشرة كان قد تم إصلاح الممر الفرعى وأقلع توفيق ضمن تشكيل من أربع طائرات لحماية القوات البرية فى سيناء التى كانت تحت رحمة الهجمات الجوية الإسرائيلية . . وفوق منطقة غرب مدينة العريش اشتبك التشكيل المصرى مع تشكيل إسرائيلى من ثمانى طائرات ، واندفع توفيق بطائرته خلف طائرة إسرائيلية ودخل معها فى معركة عنيفة تمكن خلالها من إسقاط الطائرة الإسرائيلية لكن طائرة إسرائيلية أخرى تمكنت منه وأسقطته . . واستشهد النقيب طيار توفيق دبوس فى صمت بعد بطولة رائعة ، لكن ظروف الهزيمة جعلت منه رقما ضمن آلاف الأرقام التى ضمت شهداء حرب ٦٧ . .

. . وتوالت الأيام ثقيلة بعد هزيمة ٦٧ ، وبدأت الكلية الجوية فى استئناف نشاطها . . وكان من الطبيعى أن يتم عودة محمد وحيدر كمدرسين إلى الكلية . . والتقيا فى مطار مرسى مطروح وفى نفس كل منهما الكثير من آثار تلك الفترة التى افترقا خلالها . . وكان لقاء قصيرا عابرا فى أول الأمر ، فقد دخل محمد إلى مبنى السرب قادما من القاهرة وكان حيدر ذاهبا إلى طائرته مع أحد طلابه ، فتبادلا تحية قصيرة عابرة . . ثم جاء المساء وضمهما مجلس منعزل على شاطىء البحر ، وساد بينهما صمت عميق ، فكل منهما يعرف مايدور فى خلد الآخر . . إلى أن قطع حيدر هذا الصمت :

* حمد الله على السلامه يا محمد . . رجعت من اليمن أمتى ؟

ورد محمد فى تثاقل وهو يعرف أن حيدر يحاول أن يتجنب الحديث فيما يجول بخاطره :

* رجعت أول أغسطس ، قعدت شهر فى قويسنا وأول امبارح قالوا لى على الكلية من ثانى ـ طبعا أنا جاى ومش ناوى أقعد فى الكلية ومن بكره حاقدم طلب نقل للمقاتلات .

* ده اللى انا عملته فعلا . . أنا هنا من أسبوع تقريبا وبعد وصولى على طول قابلت كبير المعلمين وقلت له على النقل .

* بص يا حيدر الكليه مش حاتوافق على النقل بسهولة ، لكن لو وصل الأمر للوزير حانروح له .

* شوف يا محمد . . أنا أخذت قرار خلاص . . ياارجع المقاتلات ثانى ياأما حاسيب الجيش كله . . إزاى مش عارف

ثم ساد الصمت بينهما مرة أخرى بعد أن توتر حيدر وهو يتحدث عن النقل من الكلية . . ووجد محمد أنه لابد وأن يواجه الموضوع الذى يحاول أن يتجنبه .

* البقية فى حياتك ياحيدر . . طبعا انت عارف إن توفيق كان اخويا زى ماهو اخوك .

وقابل حيدر كلمات محمد بصمت كان أبلغ من اية كلمات تعبر عما بداخله .

* حيدر . . انت عارف طبعا إن الشهيد فى الجنة ، وتوفيق كسب والله . وياريت احنا نلحقه . . شوف ربنا بيقول « أحياء عند ربهم يرزقون » .

واستمر حيدر فى صمته وكان لابد أن يواصل محمد كلماته :

* انا عارف يا حيدر أن توفيق كان بالنسبة لك أخ وصديق ، وحاجات كتير قوى . . لكن دى إرادة ربنا ولازم نتقبلها . . أنا مش عايز أقولك حزنى قد إيه على توفيق ، لكن ربنا يصبرنا يا حيدر . .

وتكلم حيدر أخيرا بعد طول صمت :

* انا عارف يا محمد إنك زعلت على توفيق قوى ، وعارف توفيق كان إيه بالنسبة لك ، وكل الكلام اللى قلته عن الموت وعن الشهيد أنا عارفه كويس . . وباادعى ربنا كل يوم إنه ينزل على الصبر يا محمد . . بس البنى آدم ضعيف . . والفراق صعب .

وشعر محمد من النبرات المختنقة أن حيدر يبكى ، فصمت قليلا حتى تمسح الدموع تلك الأحزان الهائلة التى تضطرم فى صدر حيدر . .

* تعرف يا محمد . . دى أول مرة دمعة تنزل من عينى على توفيق من يوم ماربنا اختاره . . واستمر محمد فى صمته تاركا لحيدر أن يفرغ كل مافى صدره .

* أنا حاسس بحاجة فى قلبى مش عارف أوصفها . . أنا رجعت من سينا فى عربية نقل يوم ٧ يونيو وشفت مناظر طول ما انا بانسحب مش ممكن حاتروح من عينى أبدا . . تصور وصلت الاسماعيلية الساعة خمسه العصر وقعدت أبص على سيناء والنار مولعة فى كل حاجة قدام عينى ، ومفيش ساعتين وعرفت إن توفيق استشهد . . ومن ساعتها وأنا حاسس إن النار جواى .

* معلهش يا حيدر . . النار دى مش إنت لوحدك اللى حاسس بيها . . احنا كلنا يا حيدر النار دى مولعه فينا . . هو اللى حصل ده سهل . . ده كويس إن احنا لسة واقفين ونتكلم ، لكن الواحد بيقول إن ده درس من ربنا علشان نعرف قد إيه احنا وحشين . .

* وحشين دى كلمة بسيطة قوى . . لو شفت اليهود عملوا إيه فينا واحنا بننسحب تقول علينا وحشين من هنا لبكرة . . آه . . نفسى أعرف الحرب دى كان سببها ايه ؟ وسينا ضاعت ليه ؟

* بكره حانقف تانى يا حيدر ، وسينا حاترجع انشاء الله . . احنا فينا ناس كويسه قوى ، بس القيادات هى اللى ضيعتنا .

واسترسل الحديث بينهما ومحمد يحاول أن يزيل عن حيدر بعض أحزانه ويأسه الذى كان يسيطر عليه تماما . . ورغم أن محمد أيضا كان الحزن يثقل قلبه ، لكن كان يسيطر على نفسه وساعدته نزعته الدينية على التمسك بصورة أفضل من حيدر .

* الوالده والوالد عاملين ايه ؟

* حا أقولك إيه يا محمد . . الوالد كويس والمحكمة والقضايا وآخذين وقته كله ، لكن المشكلة كلها فى الحاجه . . كل ما أنزل أجازة الأقيها بتعيط . . كل ما تكلمنى كلمة تجيب سيرة توفيق وتعيط . . بتتكلم عنه كأنه حايدخل عليها فى أى لحظة . . ربنا يصبرها .

* طبعا يا حيدر مش أم . . إذا كنا احنا مش مصدقين ، أمال هى تعمل إيه . . ربنا يكون فى عونها . . والبركة فيك انت واخواتك .

وعلق حيدر على قول محمد بسخرية مريرة :

* اخواتى . . هه . . نادية يا سيدى حاتسافر الكويت خلاص لأن أجازة

جوزها خلصت ، وسمير طالع فى دماغة يهاجر أمريكا بعد اللى حصل .

* حااقول ايه ؟ ربنا موجود وأحسن من الكل .

وتوالت الأيام على محمد وحيدر فى توتر وقلق مستمر ، فقد شرعا فى السعى الى النقل من الكلية الجوية والالتحاق بأسراب المقاتلات ، لكن رغبتهما قوبلت برفض شديد بحجة حاجة الكلية إليهما . . وقد دفعهما الإصرار على النقل إلى مقابلة كبير المعلمين أكثر من مرة وحاول معهما بشتى الطرق أن يعدلا عن طلب النقل لكنه فشل تماما فاضطر الى تحويل الموضوع إلى مدير الكلية الذى قابلهما بود مصطنع :

* يا أولاد اللى بتعملوه هنا فى الكلية مش أقل أبدا من اللى حاتعملوه فى المقاتلات . . وبعدين ده انتم اللى حاتبعتوا للمقاتلات الطيارين اللى حايتخرجوا من تحت إيديكم .

* معلهش يا افندم إحنا شايفين إن احنا فى المقاتلات حانقدر نفيد أكثر . . وبعدين الكلية فيها مدرسين كتير غيرنا يعنى التدريس مش متوقف علينا احنا الاتنين . .

وكان رد محمد جافا متوترا من طول ماشرح وجهة نظره التى تجعله يطلب النقل من الكلية ، وشعر بذلك مدير الكلية فحاول أن يتلطف معهما :

* أنا معتمد على المدرسين الأكفاء اللى زيكم ، وبعدين أنا ممكن أنقلكم تدرسوا للطلبة اللى فى مطار إمبابة وتبقوا كل يوم فى مصر .

* يا افندم احنا مش بنقول نتنقل علشان نقعد فى مصر ، احنا طالبين نتنقل إنشاء الله أسوان بس يكون فى المقاتلات .

وهنا انفعل عليهما المدير بعد أن وجد أن التودد لم يؤت نتيجة :

* يا حضرات انتم مش عارفين الظروف اللى احنا فيها . . سينا محتلة ، واليهود على القناه ، يعنى على بعد ١٠٠ كيلو متر من القاهرة . . والبلد عايزه طيارين بأى شكل ، وانتم عايزين تتخلوا عن واجبكم وبتدوروا على راحتكم .

* ياسيادة المدير احنا مش بنتخلى عن واجبنا . . واليهود اللى محتلين سينا دول احنا عايزين نتنقل علشان نخرجهم منها . . ونبقى بندور على راحتنا لو طلبنا نتنقل

شركة مصر للطيران . . يافندم سيادتك عارف إن الشغل فى المقاتلات قد هنا عشر مرات ، يعنى لو بندور على الراحة كنا وافقنا سيادتك ورحنا ندرس فى امبابة .

وساد الصمت لفترة وشعر المدير فى قرارة نفسه أنه أمام نماذج وطنية حقيقية تعبر عن نفسها بصدق وحماس الشباب . . فجاءت كلماته من نبع إنسانى ذاخر كان محتجبا خلف الرتبة والمنصب .

* انا مقدر شعوركم يا اولاد . . ومصر بخير طول مافيها شباب زيكم . . وانا لو مكانكم يمكن كنت ها اعمل زيكم . . لكن فرق السن والخبرة والموقع اللى انا فيه دلوقت هو اللى يخللينى أقول لكم بلاش النقل . . محمد انت مستقبلك فى الكلية

* انا مقدر شعوركم يا اولاد . . ومصر بخير طول مافيها شباب زيكم . . وانا لو مكانكم يمكن كنت ها اعمل زيكم . . لكن فرق السن والخبرة والموقع اللى انا فيه دلوقت هو اللى يخللينى أقول لكم بلاش النقل . . محمد انت مستقبلك فى الكلية
كويس ، سنك صغير وخبرتك فى التدريس كويسه . . وانت ياحيدر كلنا عارفين ظروفك العائلية . . فكر فى والدك ووالدتك ، مش كفاية الصدمة بتاعتهم فى توفيق . . انت عارف لو جرى لك حاجة حايبقى شكلهم إيه ؟ . . دول أب وأم وكفاية صدمة واحدة قوى .

واستفزت كلمات المدير أحزان حيدر المكتومة فانطلق ثائرا منفعلا، ناسيا الاحترام الواجب للمدير وللرتبة :

* هو أنا أقل من محمد . . أبويا وأمى أنا مليش دعوه بيهم . . وموضوع أخويا ده شيء يخصنى أنا وبس . . هى سينا علشان ترجع مش لازم ناس زى تموت . . وهو انا لوقعدت فى الكلية وماحاربتش مش حا اموت .

واندفع حيدر خارجا من المكتب دون استئذان والغضب ينضح من كل خلاياه . . وبهت محمد من موقف حيدر وتصرفه حيال مدير الكلية ، فظل يعتذر نيابة عن حيدر ويكرر اعتذاره حتى لا يؤثر هذا الموقف على قرار النقل . . ولم يغادر المكتب إلا حين اطمأن تماما أن المدير قد هدأت نفسه وزال منها أثر كلمات حيدر المنفعلة .

وبعد أسبوع من هذا اللقاء العاصف أصدر المدير أوامره بالموافقة على نقل محمد

وحيدر إلى اسراب المقاتلات وذهبا سويا لوداع المدير الذى انطلقت مشاعره بلا حدود :

* حانسمع عنكم كل خير انشاء الله . . أنا متأكد . . واحب أشوفكم دايما . . وأنا مش زعلان منك ياحيدر ، بس خللى بالك من نفسك . . الانفعال ياحيدر لازم يخلى الواحد يغلط . . واحنا طيارين يعنى الغلطة تساوى عمر البنى آدم .

وانصرفا من عند المدير وهما غير مصدقين أن المدير قد وافق على النقل وران عليهما صمت غريب بعد أن تحقق أملهما إلى أن قطع حيدر هذا الصمت !

* اوعى يا محمد تجيب سيره فى البيت انى اتنقلت المقاتلات .

ولم يجب محمد بشىء فقد كان يدرك وقع مثل هذا الخبر على أهل حيدر خاصة والدته فاكتفى بنظرة صامته .

واستقر المقام بمحمد وحيدر فى اللواء الجوى ٣٠٦ مقاتلات قاذفة لكن فرقت بينهما الظروف فتولى محمد قائد ثان السرب المتمركز فى قاعدة المنصورة بينما تولى حيدر نفس المنصب فى السرب المتمركز فى مطار قويسنا .

وتفجرت طاقات حيدر المختزنة فانطلق يعمل ليل نهار . . يتابع برامج السرب اليومية . . يتصدر الطيارين فى التدريب النهارى والليلى . . يضع نفسه دائما فى أول نوبتجيات الطوارىء . . يكثر من المرور على أطقم الفنيين حتى يتأكد من صلاحية الطائرات . . يطمئن بنفسه على أماكن المعيشة حتى للسائقين . . لكن رغم كل هذا النشاط والحيوية الدافقة ، صامت دائما . لا يتكلم مع الزملاء إلا فى أمور العمل والطيران وبأقل الكلمات . . وحاول الزملاء فى السرب أن يخترقوا حاجز الصمت الذى يفرضه حيدر على نفسه لكن الفشل كان نصيبهم فى كل مرة ، وانتهى الأمر باحترام تلك العزلة التى يعيشها حيدر .

حتى جاء يوم العشرين من يوليو عام ١٩٦٩ وصدرت الأوامر للقوات الجوية المصرية بالدخول فى حرب الاستنزاف التى بدأت منذ شهور مع إسرائيل . . وتلقى حيدر أوامر الهجوم بفرحة غامرة . . كانت لحظة منذ وقت طويل . . كان دوره فى الهجوم هو تدمير محطة رادار إسرائيلية فى عمق سيناء . . وكان باقيا على موعد الهجوم

ساعتان واندفع حيدر كعادته يشرح ويؤكد المهام على الطيارين ، يراجع خرائط الملاحة بنفسه حتى يضمن دقة التنفيذ . . يستحث أطقم الطائرات أثناء تجهيزها بالذخيرة . . حتى حانت لحظة الإقلاع بتشكيله الذى يقوده والمكون من أربع طائرات .

* الاتجاه الى الهدف ٩٣ درجة على البوصلة . . السرعة ٦٠٠ كيلو متر . . التشكيل فى أماكنه الصحيحة . رغم أن معه اثنين من الطيارين الجدد . . لن يزيد الأرتفاع عن ٣٠ متر حتى تهرب من الكشف الرادارى الإسرائيلى . . سيناء المحترقة . . محمد قال سنقف مرة أخرى ـ الزمن ١٤ دقيقة حتى نصل إلى الهدف . . الخضرة الممتدة حولى فى الحقول ، القرى المتناثرة ، الترع والطرقات الترابية ، الفلاحون عائدون فى المساء مع دوابهم . . الأوامر صمت لاسلكى تام حتى عبور قناة السويس . من يوم ٧ يونيو والنار فى داخلى . . «أحياء عند ربهم يرزقون» .

* القناة قدامنا يا فندم :

* كل واحد فى مكانه . . محطة الرادار حاتبقى قدامنا على طول . . فاضل ٣ دقائق بوادر نجاح الهجوم ظهرت . . لم تعترضنا الميراج الإسرائيلى . . توفيق استشهد فوق سيناء . . نحن فوق سيناء مرة أخرى . قطعة لحمى التى نزعوها منى فى حرب يونيو . . غالية تلك الرمال الصفراء . . لم نشعر بكل هذا الحب إلا حين ضاعت منا .

* محطة الردار على شمالنا بالضبط . . كل واحد فى مكانه وانقض بتشكيله فى هجمات متتالية عنيفة متجاوزا الأوامر التى كانت تنص على هجمتين فقط ، لكنه زاد عليهما هجمتين اخريين . . كان فى نشوة غريبة أسلمته إلى غيبوبة كمن بلغ به الوجد الصوفى حد الثمالة . . كان منظر النيران المشتعلة فى الموقع الإسرائيلى يشعره بطعم رجولته . . كانت الصواريخ والطلقات التى يلهب بها الموقع تندفع من لحمه ودمه وليست من مدافع الطائرة .

* كل الطائرات شرق القناة ترجع فورا . . الميراج الإسرائيلى ظهر فى المنطقة أفاق حيدر مع تلك الأوامر التى تكررت فى اللاسلكى من مركز قيادة القوات

الجوية . فأعطى أوامره على الفور إلى تشكيله لاتخاذ أوضاع العودة إلى المطار . . واندفع فى اتجاه الغرب حتى عبر قناة السويس عند مدينة القنطرة .

* نقيب حيدر « ميراج على شمالنا » مسافة ٧ كيلو متر .

وفى لمح البصر كان حيدر يلتقط موقع الطائرات الإسرائيلية على يساره ، وكانت مازالت تبحث عن الطائرات المصرية العائدة من الهجوم . . كانت تلك الطائرات أكفأ من الميج ١٧ فى القتال الجوى ، علاوة على أن اثنين من طيارى التشكيل من ذوى الخبرة المحدودة وهـذه أول طلعة قتـال حقيقى لهما يكفى انهما دمـرا الموقـع الاسرائيلى بنجاح تام . . وعلى الفور اتخذ حيدر قراره وأصدر أوامره للتشكيل فى اللا سلكى :

* لو الميراج شافونا حسن حايرجع بالتشكيل ، وأنا حا آخد . . . .

ولم يكمل حيدر أوامره حيث وجد التشكيل الإسرائيلى وكان من طائرتين ، يتجه ناحية تشكيله . . وعلى الفور انفصل حيدر بطائرته عن التشكيل وتسلق حتى ارتفاع ٢٠٠٠ متر حتى يظهر واضحا . أمام الطائرات الإسرائيلية فيجذب انتباهها ويتيح لباقى التشكيل فرصة العودة فى سلام . . ونجحت خطته السريعة التى قررها فى ثوان ، واندفعت الطائرتان خلفه . . كان يدرك أن الموقف صعب وحرج فهو يواجه طائرتين بمفرده من طراز الميراج الذى يتفوق على طائرته الميج ١٧ بكثير . إذن ليدخل الاشتباك وهو يعرف أنه لن يستطيع إصابة أى من هـذا التشكيل الإسـرائيلى . . ودخل الاشتباك وهو يبغى الخروج سليما فقط ، وبهذا يكون قد نجح فى حماية تشكيله وعودته سالما .

وفى ثوان وجد التشكيل الإسرائيلى وقد انفصل وأصبحت طائرة على يمينه وأخرى على يساره وأيقن انهما يريدان وضعه بينهما حتى يندفع وراء إحـداها فتجهـز عليه الأخرى فى نفس اللحظة التى يندفع فيها . . وتجمعت كل خبراته وأفكاره السابقة عن الاشتبـاكات الجـوية . . حسنـا . . لتكن المناورة رأسيـة وبعنف شديـد . . ونجحت المناورة فى المرة الأولى ولم تتمكن منه الطائرتان ، فقام بتكرار نفس المناورة لكن فى نهايتها عكس الاتجاه بسرعة خاطفة . . استطاعت إحدى الطائرتين اللحاق

به أما الثانية فلم تتمكن من عكس الاتجاه بالسرعة المطلوبة وخرجت من المعركة بعد أن بعدت المسافة بينها وبين طائرة حيدر . . نجح فى نصف المهمة . . لكن الطائرة الأخرى مازالت خلفه . . لتكن المناورات كلها فى اتجاه الغرب حتى يبتعد عن القناة . . وجذب طائرته بكل ما أوتى من قوة وصرخ حتى لا يصاب بالعمى المؤقت الذى يصيب الطيارين إذا زادت المناورة عنفا عن حد معين . . ونجحت المناورة وأصبح الطيار الإسرائيلى فى وضع أقل من السابق . . لابد أن يتابع المناورة حتى يتحسن موقفه مع الطيار الإسرائيلى الذى مازال إلى الخلف قليلا . .

وكانت مناورة مجنونة ، اقترب فيها من الطائرة الإسرائيلية إلى أمتار معدودة حتى أنه شاهد الطيار الإسرائيلى داخل الكابينة مرتديا أفرول أزرق . . وفى لحظة لمع فى ذهنه خاطر كالبرق فى ظلم الليل . . ليدخل بطائرته فى عين الشمس التى كانت تميل إلى الغروب ولن يستطيع الطيار الإسرائيلى متابعته . . وظل فى عين الشمس لثوان مرت عليه وكأنها ساعات خرج بعدها وهو غير مصدق . . فقد شاهد الطيار الإسرائيلى وهو يأخذ اتجاها مخالفا تماما ، فاندفع بكل سرعة الطائرة ناحية الغرب حتى يبتعد عنه . .

وبدأ يتبين موقعه فوجد أنه شرق مدينة السنبلاوين واكتشف أن الوقود المتبقى لن يكفيه حتى يصل إلى قويسنا ، فقرر الهبوط فى مطار المنصورة وأبلغ مركز العمليات بذلك .

وكان لقاء حار بين محمد وحيدر رتبت له الأقدار ، كان محمد قد عاد بتشكيله من فترة قصيرة بعد أن دمر مواقع للعدو فى سيناء أيضا . . كان السرب كله فى فرحة غامرة فقد نفذوا جميعا مهامهم بنجاح تام وعادوا جميعا سالمين . . بهت محمد حين رأى حيدر يدخل عليه مبنى السرب ، لكنه أدرك على الفور أن حيدر هبط اضطراريا فى مطار المنصورة لسبب ما . فاندفع يعانقه

* الف حمد الله على السلامه . . خير . . إيه اللى نزلك عندنا .

وتبسم حيدر وهو مصدق أنه عاد بسلام :

* اسكت يا آبو حميد . . جوز يهود اصطادونى واحنا راجعين . . عدوك يا محمد

ميراج بقى ودخلت معاهم فى حتة اشتباك . . لكن أخوك بسبع أرواح . . طلعت سليم إزاى مش عارف ؟ وفى تلك اللحظة شعر محمد بأنه يحب حيدر حبا كبيرا فقام وعانقه مرة أخرى .

* ألف حمد الله على السلامة .

وقضيا قرابة الساعة فى استعادة ما حدث عند مهاجمتهم لموقع اسرائيلى ثم تجهزت طائرة حيدر للطيران فرحل عائدا إلى مطار قويسنا بعد أن تواعدا على اللقاء فى أقرب أجازة لهما قادمة . . وتوالت الهجمات الجوية المصرية على المواقع الإسرائيلية فى سيناء . وكان محمد وحيدر يلتقيان تليفونيا بعد أى من تلك الهجمات حتى يطمئن كل منهما على الآخر . . ومرت شهور حتى رتبت الأقدار لقاء مثيرا ، فقد فوجىء محمد بأن حيدر يتصل به من القاهرة .

* انا باتكلم من مصر يا محمد . . وياريت تقدر تنزل النهارده علشان فيه موضوع مهم وعايز أشوفك ضرورى .

* أنا نازل النهارده لان عندى مأموريه بكره الصبح فى المستشفى . . وحا افوت عليك النهارده بالليل .

ووصل محمد إلى القاهرة واتجه على الفور إلى حيدر والقلق ينشب أنيابه فى كل خلاياه وتفكيره . . فما هو الموضوع الذى يدفع حيدر لأن يطلبه بمثل هذه اللهفة .

* أهلا يا محمد . . تعالى نقعد فى الصالون لوحدنا . .

كان حيدر متجهم الوجه وجو المنزل مليئا بالتوتر والقلق

* الحاجه عرفت موضوع نقلى من اسبوعين تقريبا . . ومن ساعتها والبيت قايده فيه حريقه . . طول النهار تعيط وعايزانى ألغى النقل . . وبابا اللى طالع عليه إنى لازم اتجوز دلوقت ، وأخلف كمان . .

وتنهد محمد بعد أن عرف حقيقة الأمر . . واشعل سيجارة مستهينا بالموضوع :

* يا عم حيدر قلقتنى ، وافتكرت ان فيه حاجه . . الحاجه ممكن نريحها بكلمتين ، إنما موضوع الجواز ده لازم . .

وقاطعه حيدر منفعلا :

* خد الموضوع جد يا محمد . . انت ما عندكش فكره ماما شكلها إيه :
وبدأ القلق يعاود محمد مرة أخرى :

* طيب وماله لما تتجوز . . مش غلط يا حيدر اللى بابا بيطلبه منك . . انت النهاردة عندك ٢٥ سنة يعنى أصغر منى بسنة واحدة وانا متجوز وعندى ولد كمان .

وفوجىء محمد بوالدة حيدر وهى تقتحم عليها حجرة الصالون ثم أصيب بالدهشة من الانهزام الذى وضح فى ملامحها . . كانت تبدو وكأن الحزن قد امتص منها رحيق الحياة .

* بقى يا محمد تبقى عارف إن حيدر اتنقل من الكلية وما تقولش حاجه .
وانعقد لسان محمد وشعر بأن الموقف ليس بسيطا كما كان يتخيل :
* معلهش . . يا حاجه . . اصل الموضوع . .
ولم تعطه الفرصة ليقول شيئا وإنما اندفعت كلماتها مغلفة بدموع لا تستطيع السيطرة عليها :

* هو انت نسيت توفيق يا محمد واللى جرى له . . مش كفايه حرقة قلبى على واحد . . لازم يبقوا اثنين . . وهو أنا أقدر استحمل حاجة تانى بعد توفيق . . . حرام عليك يا حيدر ده انا امك . . ده انت اللى فاضل لى . . توفيق راح ، وأخوك الصغير وهاجر ، واختك ومسافرة هى كمان ، يبقى انت كمان عايز تروح تحارب علشان يجرى لك حاجه . . يا ابنى حرام عليك . . ماحدش حاسس منكم النار فى قلبى شكلها ايه . .

وقامت والدة حيدر دون مقدمات بعد أن أفرغت جزءاً من كثير يملأ صدرها ، ومحمد صامت يريد أن يبكى مشاركة لها فى تلك الأحزان ، لكن دموعه كانت صعبة جدا ، فهو لا يذكر أنه بكى من سنوات عديدة .
* قلبى عندك يا حيدر والله . . ربنا يصبرها . . وكان الله فى عونك انت :
* انت شفت حاجة بسيطة . . أمال لو قعدت معاك شوية وحكت عن توفيق والبنت اللى كانت حاتخطبها له ، والفرح ، والمعازيم ، وحاجات كثيرة قوى . . والآخر تقول ده مات وتقعد تستغفر ربنا . وأشعل محمد سيجارته الرابعة علها تزيح

عنه جزءاً من حالة الحزن التى غمرته بشدة .

* بص ياعم حيدر . . طبعا انت مش ممكن حاتفكر فى النقل تانى للكلية . . وبرضه دى أملك يا حيدر ، يعنى لازم نفكر فى حاجه تريحها شوية من العذاب اللى هى فيه . . وانا شايف إن والدك عنده حق قوى فى موضوع جوازك ده . .

* بس أنا مش عايز اتجوز دلوقت . . وبعدين مفيش واحده معينة علشان أقول اتجوزها .

* يا سيدى دلوقت والا كمان سنة ما انت حاتتجوز . . وبعدين إن كان على الواحدة ندور عليها وأكيد حانلاقيها . . والدتك يا حيدر شاعرة إن الأمل اللى كانت عايشة علشانه بيموت قدامها ، خصوصا بعد سفر أخواتك . . لازم تلاقى امل جديد يا حيدر ، وده حاييجى من إنك تتجوز وتخلف عيل والا اثنين :

ولم يمض سوى شهر على هذا اللقاء المثير إلا وتوقفت حرب الاستنزاف . . وكانت فرصة لالتقاط الأنفاس بعد أن هدأت الأمور . .

وانقضت ثلاث سنوات بعد وقف إطلاق النار . . تزوج خلالها حيدر من عروس شابة وإن كانت تصغره بعشر سنوات . . ثم شاءت الأقدار أن يجتمع محمد وحيدر مرة أخرى ، فتم اختيارهما ضمن مجموعة من الطيارين للسفر إلى ليبيا للتدريب على الطائرة الميراج واصطحب كل منهما أسرته إلى طرابلس حيث تجاورا فى مساكن الضباط الموجودة بالقاعدة . . وسمح لهما البعد عن جبهة القتال أن يمارسا حياة أسرية هادئة مليئة بأوقات مرحة متفرقة مع العديد من الأصدقاء المصريين الذين كانوا فى طرابلس . . لكن حتى فى تلك الأوقات كان حيدر صامتا لا يتكلم إلا فى النادر

* انت مش ملاحظ يا محمد إن الكابتن حيدر دايما ساكت ، يمكن احنا علشان مدنيين مش مبسوط معانا .

* لا يادكتور على . . حيدر ده أصله حكايته صعبة قوى وهو على طول ساكت كده :

* ما انت بتتكلم معانا عادى . . يعنى معقول هو كده مع زملاؤه فى المطار .

وانفرد محمد بحيدر فى ركن منعزل بعيدا عن مجموعة الأصدقاء والتى كانوا يمضون

معها السهرة .

* احنا يا حيدر موجودين فى الحياة علشان نعيشها .

* وهو انا مش عايشها يا محمد . . سمعت كلام ابويا واتجوزت ، ومنى حامل ، وقاعد معاكم زى بقية الشله فيه حاجه أقدر أعملها تانى ؟

* انت هاتخبى على انا يا حيدر . . ده انا اللى عارف كل حاجه . . انت بتتفرج على الدنيا ومش عايز تشارك فى اى حاجة .

* بص يا محمد . . الحاجة الوحيدة اللى أقدر أشارك فيها ، وأعيشها زى ما بتقول هى الحرب . . ودى بقت شىء بعيد . . يا عالم امتى حاتحصل ؟

* لا حاتحصل والله . . وحانحارب تانى يا حيدر . . وتفتكر يعنى الناس اللى قاعدة دى كلها مش نفسها الحرب تقوم .

* الناس دى مش حاسة بأى حاجه . . وآهى ثالث سنة تعدى ومفيش حرب والعملية بقت شىء عادى .

* متهيألك . . الناس اللى انت شايفها بتضحك دى ضحكتها كلها مراره وحزن :

ولم يمض على تلك الجلسة إلا شهر تقريبا ، سافرت بعده منى الى القاهرة حتى تضع مولودها الأول . . ثم صدرت الأوامر بعد شهر بعودة الطيارين المصريين الى القاهرة . . واستقر محمد وحيدر فى السرب ٦٩ الذى تمركز فى قاعدة طنطا الجوية بطائراتهم الميراج . . وكان حيدر أسعد الجميع بأوامر العودة الى القارة . . فقد شعر بأنه عاد الى موقعه الطبيعى ، كما وإنه شاهد مولودته التى اطلق عليها اسم «ملك»

وتوالت الأيام رتيبة فى تدريب روتينى . وكان توالى الأيام على تلك الصورة يزيد الجميع إحباطاً ويأساً . . إلى أن بدأت الأوامر تتغير وتطلب تجهيز خطط للعمليات ، وكان محمد هو المسئول عن ذلك ثم بدأ تدريب الطيارين على هذه الخطط . . وكان حيدر يشترك فى هذه التدريبات لكن دون حماس ، فقد ملأه اليأس حتى ظن بأن الحرب لن تقوم . . ورغم أن الشواهد كانت تتزايد بأن الحرب قادمة لكن حيدر لم يكن يصدق أياً منها .

* بقى لنا سنين واحنا بنعمل الكلام ده يا محمد . . وفى الآخر حيطلع إنه مشروع أو مناورة :

* بس المره دى يا حيدر متهيأ لى أنها جد .

* نفسى أصدق يا محمد بس مش قادر .

وبعد هذا الحديث بيومين فقط جاءت أوامر الحرب . . وتلقى محمد الأوامر التفصيلية مساء الخامس من أكتوبر ٧٣ وفى صباح اليوم التالى اجتمع قائد السرب بالطيارين وأعطى أوامره الخاصة بالأهداف والخطة العامة للقوات الجوية ثم غادرهم إلى غرفة العمليات تاركا لمحمد شرح الأوامر بالتفصيل .

* أولا . . نقرا الفاتحة كلنا ان ربنا يوفقنا ويكتب لنا النصر . . ثانيا كل واحد يفطر . . ثالثا انا اللى حا اختار أسماء كل تشكيل على حسب المهمه المطلوبه . . يعنى مش عايز حد يقول اشمعنى فلان اسمه فى الطلعة وأنا لأ .

وانطلق محمد يشرح للسرب كافة المهام المطلوب تنفيذها بالتفصيل الدقيق والتصرف فى كافة الاحتمالات التى يمكن أن يتعرض لها أى تشكيل أثناء تنفيذ مهامه . . لكن ما أن انتهى من اجتماعه بالطيارين وغادر غرفة المحاضرات حتى لحقه حيدر مسرعا .

* محمد . . موضوع الأسماء والطلعات مش حاتنازل عن دورى فيه أبدا . . انت الوحيد اللى أقدم منى . . يعنى أول تشكيل انت والثانى يبقى أنا على طول .

وشعر محمد أن حيدر يضعه فى مأزق . . لأنه فى قرارة نفسه لم يكن سيضع حيدر إلا فى آخر تشكيل ، أو ربما لن يضعه نهائيا فى الطلعات . فكان لأبد وأن يجيب عليه بطريقة رسمية :

* طيب لما أنا الأقدم زى انت ما بتقول ، يبقى أوامرى هى اللى تتنفذ .

* مقدم محمد . . أنا طول عمرى عارف كويس إن فيه أقدمية بينى وبينك ، زى ما فيه اخويه وعشره . . لكن طول عمرى بافصل بين الأقدميه وبين الصحبية . . لكن الا فى موضوع الطلعات ده . . بالأقدميه يعنى بالأقدميه . . وثانى تشكيل انا اللى حاكون فيه ولا يمكن حايكون حد ثانى وأراد محمد أن يخرج من هذا المأزق فحول دفة الحديث :

* يا سيدى سيبنى أجهز للطلعة بتاعة النهارده مش يمكن أروح وما ارجعش . . حاتبقى ساعتها أنت أقدم واحد وحط الأسماء على كيفك .

* لا ياسى محمد حاتروح وحاترجع بالسلامة انشاء الله عمر الشقى بقى . .

وقام محمد بقيادة أول تشكيل وكان ضمن الضربة الجوية الأولى التى انطلقت فى الثانية ظهرا معلنة بداية حرب تحرير سيناء . . وعاد التشكيل كله سليما بعد أن أدى مهمته بنجاح تام . . كانت هذه الطلعة بمثابة البعث الذى أيقظ الجميع وكأنهم أهل الكهف وقد دبت فيهم الروح مرة أخرى . . واجتمع الطيارون فى المساء تملؤهم الفرحة الممزوجة بالقلق والتوتر .

* مش قلت لك حاتحارب ثانى .

* غرفة العمليات بتقول إن الضربه الجويه كلها نجحت ، أربع طيارات من مائتين طياره .

* والله وحاترجع أيام الاستنزاف ثانى .

* لا . . استنزاف إيه . . الجيش بتاعنا عبر القناة . . المرة دى حرب علشان نرجع سينا كلها .

* بس الخوف اليهود بكره الصبح حايردوا إزاى ؟

وفى صباح السابع من أكتوبر هاجمت الطائرات الإسرائيلية قاعدة طنطا ونجحت فى إغلاق المطار وتدمير جزء من الممرات .

* مش قلت لك اليهود حايردوا . .

* يا خوفى احسن تتكرر ثانى ٦٧ .

يا حضرات طنطا بس هى اللى اتقفلت . . المنصورة وانشاص وأبو حماد وكل المطارات سليمه وشغاله . . واحنا على الضهر انشاء الله حيكون المطار سليم .

وانطلق الطيارون بعد الهجوم الإسرائيلى يشاركون جماعات الإصلاح والمهندسين الذين يقومون بإصلاح الممر ، بل زاد الأمر أن بعضهم قفز فوق العربات وتولى قيادتها . وكان لهذا أثر بليغ فقد اشتعل حماس جماعات الإصلاح حين وجدوا أن الطيارين يشاركونهم العمل بحق . . وجاءت أوامر الطلعة الثانية بتدمير مواقع

للعدو فى سيناء بتشكيل مكون من ثمان طائرات ، على أن يتم التنفيذ بمجرد صلاحية الممر

واستدعى محمد الرائد حمدى على انفراد وأبلغه بأنه سيقود التشكيل الذى سيقوم بتنفيذ هذه الطلعة . . وما هى إلا دقائق حتى انـدفع حيـدر مقتحما المكتب عـلى محمد :

* أظن يا محمد أنا اتكلمت معاك فى موضوع ترتيب الطلعات ، وانت وطلعت أول طلعة يبقى أنا اللى لازم أطير الطلعه دى مش حمدى .

وحاول محمد أن يمتص غضب (غضبه) حيدر ويكبح جماح انفعاله ، فتعمد أن يخاطبه بلهجة رسمية :

* رائد حيدر . . أنا قلت الموضوع مش حايكون بالدور أو بالأقدميه . . وعموما أنا شايلك للطلعات الثقيلة .

* ثقيلة والا خفيفة . . انا اللى حااطلع المرة دى يعنى أنا .

وزادت حدة المناقشة بينهما وتوترت الأعصـاب . . ومحمد يستميت فى أن يثنى حيدر عن رأيه . ولم يجد مفراً فى النهاية إلا أن يقول له :

* دى أوامر العقيد على . . روح له غرفة العمليات واتناقش معاه :

واندفع حيدر خارجا دون تعليق وبعد حوالى نصف الساعة اتصل العقيد على بمحمد تليفونيا :

* مفيش فايده يا محمد ، حاولت معاه بكل الطرق . . خلاص اكتبه هو قائد التشكيل .

وتنهد محمد فى صمت واستدار إلى دفتر أوامر الطيران وكتب أسماء التشكيل بقيادة الرائد طيار حيدر دبوس وجلس فى مكتبه على انفراد حتى دخل عليه حيدر وعلى وجهه ابتسامة وكأنه انتصر عليه .

* بقى خايف يا محمد أحسن اموت .

* مش موضوع خوف يا حيدر . . الحكاية ان . .

ولم يتركه حيدر يكمل فقد كان يشعر بمدى الحرج الذى يعانيه واستـراح محمد لمقاطعة حيدر له .

* ده انا ساعة اليهود ما هاجمونا الصبح ، شظية قنبله فاتت جنبى بمتر . . يعنى كان ممكن أتوكل وانا على الأرض . . هو انا حاقولك انت يامحمد الكلام ده .

ولم ينتظر حيدر رد محمد بل اندفع مناديا على أفراد التشكيل حتى يشرح لهم المهمة والاحتمالات التى يمكن ان تقابلهم .

* يعنى فى النهاية عايز التشكيل يهد الموقع على اللى فيه ما يفضلش فيه طوبه واحده . وقبل موعد الطلعة قام محمد بدعوة أفراد التشكيل على كوب من الشاى ، وجلس معهم لكن مرارة ساخرة كانت تثقل صدره فقد كان حيدر يتكلم كثيرا ومحمد صامت إلا من كلمات مقتضبة .

* تصور «ملك» بنتى ابتدت تعرفنى مع إن عندها خمس شهور . . بقت عفريته ولذيذه .

* ربنا يخليها لك .

وتمتم محمد فى نفسه «ويخليك مها» .

وحان موعد الطلعة بعد أن تم إصلاح الممر . . وأصر محمد على أن يقود العربة الجيب بنفسه ويقوم بتوصيل الطيارين إلى أماكن طائراتهم . . وهبط حيدر عند طائرته ، ولحقه محمد وانفرد به آمام الطائرة :

* حيدر . . أوعى تكون زعلان منى . . انت عارف إن انا . . .

ونظر حيدر إليه بنظرة ملؤها الحب والعتاب :

* ادعى لى يا محمد .

* موفق انشاء الله . . خللى بالك يا حيدر ، ويلاش الانفعال .

ولم يحاول محمد ان يسلم على حيدر أو يأتى بأى شىء غير طبيعى رغم أنه كان فى داخله متوترا وقلقا بصورة كبيرة .

وانطلق التشكيل بقيادة حيدر وقد انتابه شعور غامر بالفرحة ، لم يشعر به حتى فى ليلة زفافه . . وفى دقائق كان حيدر يعبر قناة السويس . . كان كمن يلقى بنفسه فى احضان حبيبته سيناء التى طال الشوق إليها . . وانتابه ذلك الإحساس الصوفى الرقيق .

* وحشتيني . . ثلاث سنوات فراق . . حته من لحمى . . توفيق أخويا مات هنا . . ست سنين والنار والعة فى قلبى . . رمل وتراب لكن غالى . . ملك بنتى لما تكبر لازم تيجى وتشوف سينا . . رائحة الطين فى البلد لما كنت أزور قرايبى الفلاحين . . محمد قال حانرجع تانى . . شمسك حاتطلع يا مصر . . احنا فينا ناس كويسين قوى . . أمى حبيبتى لها أرجع عايز حضنك . . مصر بخير طول ما فيها شباب زيكم . . «احياء عند ربهم يرزقون» . . النهارده يومك . . طعم الرجوله حلو . . دبابات مصر شرق القناة . . بالاش الانفعال لإنه حايخليك تغلط . . اليهود الكلاب .

* الموقع قدامنا بالضبط يافندم

وانفصلت الطائرات بأوامر من حيدر استعدادا لمهاجمة المواقع المحددة . . واستسلم حيدر لحالة الوجد والنشوة التى تنتابه فى كل مرة يهاجم فيها اليهود . . كان الدفاع حول المواقع كثيفا ، والنيران المندفعة كنافورات من لهب تطارد حيدر وتشكيله .

* انا ومعايا حسن حانهاجم المدفعية . . رفعت ومعاك باقى التشكيل تهاجموا المواقع . وانقض حيدر على الموقع الأول وثقته كبيرة فى نتيجة الهجوم . . فهو يهاجم المواقع بطائرة ميراج وهى أسرع وأقدر على المناورة ، وتسليحها أقوى . . وحبس انفاسه بعد ان التف جهاز تنشين الطائرة بالموقع ، حتى أصبح فى مرمى الاطلاق فضغط على زر اطلاق ثمانية صواريخ كانت كافية لتحويل الموقع إلى شظايا وأشلاء تتطاير فى كل اتجاه . . وتكرر ذلك مع الموقع الثانى .

* الله ينور ياراند حيدر . . سلم ايديك يافندم .

* يالا يا شباب كله يدخل يضرب وهو مطمئن .

وارتفع حيدر بطائرته حتى يهاجم الموقع الثالث ، وكان باقى التشكيل قد اندفع يقصف ويدمر فى المواقع الاسرائيلية . . لكن المدفعية كانت أسبق منه هذه المرة فقد لحقه مخروط النيران واتجه نحو طائرته .

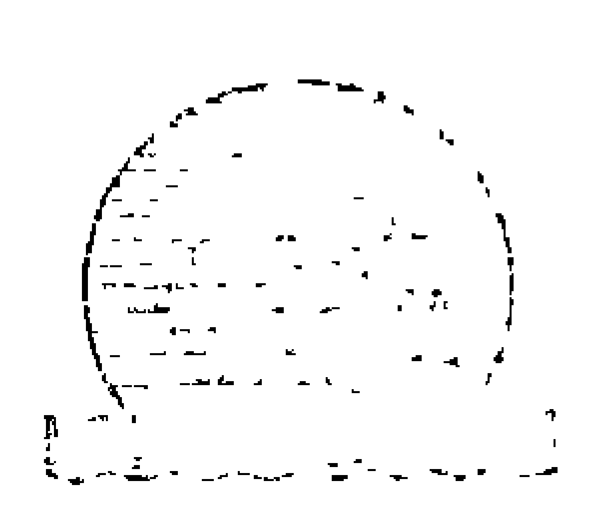
* خللى بالك يافندم

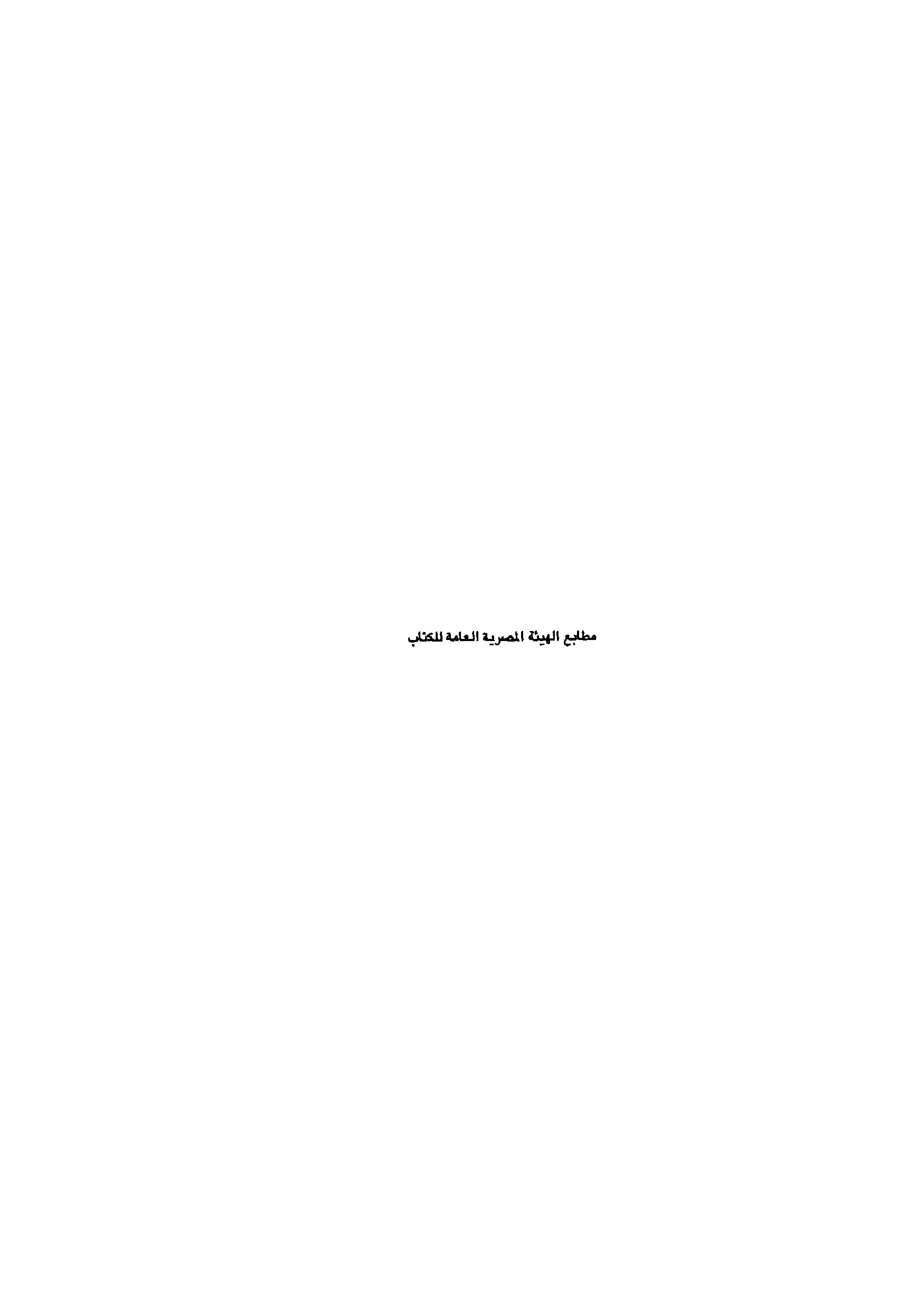
لكن حيدر لم ينتبه إلى تحذير حسن بل ربما لم يسمعه فقد كان صوت السكون يطغى على كل شىء حتى على هدير محرك الطائرة . كل ما كان فى حواسه قد تركز فى عينيه التين تحجرتا على الموقع الذى سيهاجمه . . وفى لحظة تصميم وانفعال اندفع بطائرته . . وكان لابد وان يصطدم بتلك النيران . . فتهتز الطائرة بعنف لكن بكل ما أوتى من قوة استطاع ابقاءها فى وضع الهجوم منقضة على الموقع تماما . وغاب عن الوعي تماما إلا يديه التين تحجرتا على عصا القيادة وشريط سريع يمر بخياله يرى فيه صوراً متداخلة لأمه ومدير الكلية ، وأقاربه الفلاحين . . وتهوى الطائـرة محترقـة داخل الموقع الإسرائيلى ، وتنفجر براكين الغضب المحبوسة من سنوات طوال وتحيل الموقع كله إلى دمار شامل . .

ويعود التشكيل دون قائده ويهبط فى القاعدة ، ويكون محمد هو أول المستقبلين لطيارى التشكيل يسجل تقاريرهم عن الخسائر التى تمت فى مواقع العدو ، ويقوم بإبلاغها لغرفة العمليات . . ويستفسر عن كيفية استشهاد حيدر

* والله يافندم لولا الرائد حيدر ماكنش حد فينا عمل نص اللى عمله .

ويخرج الطيارون من غرفة المحاضرات والصمت يغمر الكون كله . . ومحمد . . يسير بمفرده ينظر إلى الشمس الزاحفة إلى الغروب ويتمتم فى سره «أحياء عند ربهم يرزقون» .





مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٠٩٥/١٩٩٣

ISBN 977-01-3470-8

القفص الطائر

الغلاف للفنان: محمود الهندى

انقضت الساعات الباقية علي موعد الطلعة وانطلقت الطائرات في موعدها وما هي إلا عشر دقائق إلا وكانت الطائرات تعبر قناة السويس واطمأن طلعت لما رأى طائرات التشكيل زاحفة حوله في أماكنها تماما.. وفى الوقت المحدد على الخريطة ارتفعت طائرات التشكيل فوق الموقع الاسرائيلى وفى ثوان معدودة وبتعليمات منه انقلبت المنطقة إلى كتلة من الجحيم، فقد اندفع طيارو التشكيل يقذفون الموقع الإسرائيلى بقنابلهم وصواريخهم المغلفة بحقد غريزى لكل ما هو إسرائيلى فى الوقت الذى كان الموقع الإسرائيلى يبادلهم النيران من مواسير المدافع المضادة للطائرات وكأنها خراطيم لهب مستمرة.

مدير التحرير

48

٢١٠ قروش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب